

دراسات في الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
المتأهلة

من سير علمائنا المسلمين

جمال الدين الرازي

المجلد السابع والعشرون

دراسات في الإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

من سير علمائنا المسلمين

جمال الدين الريادي

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة



« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »

(سورة فاطر)

« أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ يُتَعَلَّمَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ عِلْمًا
ثُمَّ يُعَلِّمُهُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ » .

(حديث شريف)

مقدمة

هذا كتاب درسنا فيه سيرة بعض العلماء المسلمين الذين كان لهم القدح الملى في ميادين علوم التاريخ والاجتماع ودراسة احوال الطبيعة وظروف البيئة ، وقاموا برحلات طويلة في شتى الاقطار والامصار لاستكمال بحوثهم واستيفاء معارفهم ، وخرجوا على العالم بكتب قيمة في العلوم الاجتماعية .

وكانت كتبهم بمثابة مراجع دسمة لشتى العلماء في الشرق والغرب ، واشاد بذكرها عدد كبير من المستشرقين .

ورغم مرور الحقب وتتابع الأزمان ، فان ذكر هؤلاء العلماء لا يزال شذى فواحا وعبيراً مسكياً الانفاس في التاريخ العربى .

وما احوجنا ونحن في وثبة عربية ناهضة أن نقلب صفحات التاريخ لنسترجع «امجاد» العرب فى مختلف المعارف الانسانية.

الفصل الأول الإسلام والعلم

الإسلام يدمو الى العلم ، وهذه حقيقة واضحة لا تقبل الشك ، ولا ترقى اليها الريبة ، فقد زخر كتاب الله العزيز بالدعوة الى المعرفة وطلب العلم فقال عز وجل في كتابه العزيز : « **وقل رب زدنى علما** » كما قال جل ثناؤه : « **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** » كما قال الرسول الكريم : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة** » وجاء في حديث آخر : « **أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم** » .

ودعا الرسول الى التردد على مجالس القرآن والعلم ، والأخذ عن العلماء والفقهاء ، ونشره وأذاعته ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« **تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، وهذا كونه تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعلمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة** »

وقد جاء القرآن الكريم متضمنا كثيرا من الأسرار العلمية ، والحقائق الطبيعية التي لو تأمل فيها القارئ أذهلته قدرة الخالق وعظمة كتابه المبين .

وصدق الله تعالى اذ يقول : « كتاب أنزلناه اليك مبارك
ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب » .

وعن على - كرم الله وجهه - قال : سمعت رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - يقول : « ستكون فتن » قلت فما المخرج
منها يا رسول الله ؟ قال : « كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر
ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه
من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو
حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط
المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ،
ولا تشعب معه الآراء ، ولا يشعب منه العلماء ، ولا يمله الاتقياء ،
ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، ومن علم علمه
سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به
أجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم » .

فالقرآن الكريم يضم بين آياته حقائق علمية كبيرة توصل اليها
العلماء بعد حقب طويلة من الأزمان ، وجهود مضيئة من الأبحاث ،
ولكنها تمثلت بين آيات القرآن الكريم تفصح عن قدرة الخلاق
العظيم ، وتنطق بعظمة العلى القدير .

فأله عز وجل قال في الخلق : « ثم جعلناه نطفة » كما قال
أيضا : « خلق الإنسان من علق » والنطفة هي الحيوان المنوى
الذى ينشأ في خصية الرجل ويبلغ طوله نحو الاثني وثلاثين
« ميكرونا » « وحدة » الى الاثني والستين وهو مقسم الى
اربعة اقسام وهى : الرأس والعنق والجسم والذنب ، ولا يخرج
الحيوان المنوى عن كونه خلية واحدة ، مركبة هكذا التركيب
الخاص ، وهو كائن حى سريع الحركة اذ تبلغ سرعته نحو نصفه
ميللتر فى الثانية الواحدة . أما « العلق » فى الآية الثانية فمعناها
أن الحيوان المنوى علق بالبويضة واستمسك بها فعلمت المرأة أى
حبلت ، فالإنسان يخلق من اتحاد الحيوان المنوى مع بويضة

والتراب هو الأصل فقال تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة » .

وقال تعالى : « انا خلقناهم من طين لازب » .

وجسم الانسان كما اكتشفه العلماء المحدثون مكون من عناصر معدنية وغير معدنية وهى بعض محتويات القشرة الارضية حسب التحاليل الدقيقة والابحاث الوافية .

ومن العناصر المشتركة بين جسم الانسان والقشرة الارضية عناصر الاوكسجين ، والسليكون ، والالومنيوم ، والحديد ، والجر ، والصوديوم ، والبوتاسيوم الخ ..

وغير هذا في القرآن كثير ، مما فتح الآفاق للعقل الى غاية مداه ، ووسع الاشواط للضمير الى منتهى اربه ..

فلا غرو ان يتبع المسلمون نهج الدين الحنيف ، وينسجون على منوال نبيهم الكريم ، ويسرون على هدى رسولهم العظيم ، فيسعون في طلب العلم ، ولا يتوانون عن التحصيل ، وينفقون في سبيل ذلك الجهد الكبير والمال الوفير ويضحون براحتهم وهنائهم في سبيل العلم .

وقد ظهر من المسلمين علماء فطاحل ، بهروا التاريخ ، وبلغوا شأوا كبيرا من المعرفة اذهل العالم بأسره ، كما توصلوا الى حقائق علمية كانت دفينه فترة طويلة من الزمن .

وفي الوقت الذى كانت فيه أوروبا تسرف في جهل مخيم ، وظلمة بهيمية ، كان العلماء العرب يبحثون وينقبون ، وكانت آراؤهم نبراسا لامعا ، وسراجا وهاجا للناس .

وكانوا أشبه بالمنارات المتألقة في عرض البحر الخضم لتهدى
السارين بين اللجج والأمواج وفي ضُجْب الأذى الجبار ، والأنواء
العاصفة ، والرياح الهوجاء .

ولم يركن العلماء المسلمون الى الهدوء والاستقرار بل ظلوا
يبحثون عن الحقيقة ، وينقبون عن المعرفة ، وكان منهم رحالة
طوفوا في الآفاق ، وأخذوا ينتقلون بين شتى الأقطار والأمصار ،
ويصفون الحياة في المناطق النائية والأماكن البعيدة ، ويحللون
مظاهر الحياة فيها ، ويتعرضون لأخلاق الناس وطباعهم وعاداتهم
وتقاليدهم ، ويصفون للناس ما شاهدته عيونهم من آثار خالدة ،
أو أماكن للعبادة ، تعد تحفة فنية رائعة وصورة اسلامية رفيعة .
وقد توصل بعض العلماء الى وصف حياة الحيوان وتصوير
طباعه تصويراً بهر علماء الأحياء وأذهلهم مما يدل على فرط ذكائهم
وبراعتهم المتناهية .

وان الباحث في التاريخ الإسلامى يلاحظ بوضوح مدى تأثير
الغرب بالعلوم العربية سواء في اللغة أم الأدب أم الكيمياء والطبيعة
والفلك ، وما الى ذلك من علوم .

العربية مفتاح اللغات :

وقد كانت اللغة العربية - لغة القرآن - هي الطاقة التي
وسعت مباحث العلماء المسلمين في مختلف العلوم ... وكان
طبيعياً أن تنتقل هذه العلوم بلسانها العربى مع حركة الفتح الى
الامصار المفتوحة ، فكان تأثير اللغة العربية واضحا جليا في بلدان
الغرب والشرق ... وان مراجعة يسيرة للغات المختلفة لتزك
« سيلا » من الفاظ العرب في هذه اللغات .. وبخاصة الالفاظ
العلمية والحضارية سنذكر قليلا منها خلال هذا البحث .

وهكذا كانت اللغة العربية معينا خصباً ومنبعاً متدفقا في
اللغة ، وكيف كانت الأمم المنطوية تحت لواء الاسلام تستخدم

الفاظ العربية في لغتها وتستفيد من مظاهر الحضارة العربية
ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

وعندما وصلت الحضارة العربية الى اسبانيا كان الأدب
العربي مصدرا من مصادر التأثير في الآداب الأوروبية .

ولعل أوضح دليل على مدى تأثير الثقافة الغربية بالأدب العربي
هو ما ظهر في شعر التروبادور « غرسيه فرننث » كما ظهر في
تروبادور بروفنسه الذين تأثروا بالموشحات والأزجال الاندلسية
سواء من حيث الصورة الشعرية ، أم من حيث المعاني المطروقة .

ومن مقارنة بعض مقطوعات التروبادور « غرسيه فرننث »
بنظائرها في الشعر العربي يتبين مدى تأثيره بالعناصر الشعرية في
البيئة الاسلامية .

العلوم الرياضية :

أما في ميدان العلوم فقد وصل العرب الى شأو عظيم من
التقدم بل لقد برع بعض المسلمين في ميدان الرياضة وهو من
الميادين الجديدة التي خاض فيها العلم الحديث .

ومن أشهر العلماء المسلمين أبو العباس الفضل بن حاتم
النيريزي ، ويقول عنه القفطي في كتاب « أخبار العلماء بأخبار
الحكماء » « وكان الفضل متقدما في علم الهندسة ، وهيئة
الأفلاك ، وحركات النجوم ، وله تأليف مشهورة » .

واشتغل أبو العباس بالرصد ، ويقال أن الأرصاد التي أجراها
قد راجعها بتدقيق ابن يونس الشهير الذي أتى بعده بقرن واحد .

وقال بمهارة النيريزي الفائقة في الرصد ، ومن أشهر مؤلفاته
كتاب الأربعة لبطليموس ، وكتاب أحداث الجو ، وقد ألفه
للمتعهد ، وكتاب البراهين ، وهيئة آلات يتبين فيها أبعاد الأشياء

وكتاب سميت القبلية ، وكتاب شرح فيه المجسطى وآخر في شرح كتاب اقليدس ، وهذا الاخير هو ترجمة جيرارد اوف ريمونا وكتاب الزيج الكبير ، والزيج الصغير .
كما برع من العلماء المسلمين في الرياضيات كذلك أبو محمد خان بن الخضر البخجندى مؤلف كتاب « المبادئ والغايات في علم الميقات » .

أما الخوارزمى (٧٨٠-٨٥٠ م) فإنه تناول مبادئ علم الجبر التى وضعها ديوفانتس اليونانى فى الاسكندرية حوالى القرن الثالث او الرابع الميلادى ، وهذبها و اضاف اليها اضافات كثيرة ، كما كتب فى الارقام الهندية ، والف تقاويم فلكية وصاغ أقدم جداول لحساب الثلثات .

أما (ثابت بن قرة) فيعتبر كتابه فى « الزولة » من أبرع الكتب فى الساعة الشمسية وتحديد ارتفاع الشمس ، وطول السنة الشمسية .

وكان أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى من أعلام المسلمين فى الفلسفة والتاريخ والفلك والرياضة ، وكان كتابه « الآثار الباقية » من أمتع الكتب فى هذه الميادين .

أما أبو على الحسن بن الهيثم البصرى فقد برع براعة فائقة وأظهر مهارة منقطعة النظير فى ميدان « البصريات » .

وقد بحث فى انتشار الضوء والالوان والخداعات البصرية والانعكاس البصرى ، وسجل تجارب شتى فى هذه الظواهر الطبيعية .

التاريخ الطبيعى :

وفى التاريخ الطبيعى اشتهر من المسلمين الدميرى والقزوينى ، وكان الجاحظ صاحب فراسة دقيقة وعلم واسع فى التاريخ الطبيعى .

ويعتبر كتاب « الحيوان » من أمتع الكتب في هذا الميدان ،
اذ استطاع الجاحظ أن يفوض إلى الأعماق في تصوير أحوال
الحيوانات المختلفة .

وتكلم عن الأسد والنمر والفيل كما تكلم عن الدواجن ،
والديكة وعلل صياحها وصور حركات الحمام بين الأمشاش ،
وأسابب الهجرة عند الحيوان .

وقد تمثلت في كتابه مقدرته الواسعة في التحليل والتفسير
العلمي .

كما كان الأصمعي الفقيه اللغوي أحد مشاهير العرب الذين
كتبوا من الحصان والجمل والحيوانات المفترسة والحيوانات
المستأنسة .

وفي علم الجغرافيا كان الإدريسي من أبرع علماء المسلمين في
وصف البلدان ، ويعتبر كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق »
من أدق الوثائق في هذا الباب .

وقد رحل إلى صقلية وظفر بأعجاب ملكها وصنع له كرة
أرضية طار صيتها في الآفاق وكانت دليلا على براعته في رسم
الخرائط .

التاريخ والجغرافيا :

وفي التاريخ سطع نجم الطبري وأبو حنيفة الدينوري وابن
قتيبة واليعقوبي في القرن الثالث كما سطع نجم ابن مسكويه
والصولي في القرن الرابع ، ثم ظهر بعد ذلك الخطيب البغدادي
وابن عساكر وابن الجوزي وابن خلدون ، والمقرئزي ، وابن أياس .

وفي القرن الثاني من الهجرة ظهر ابن إسحق والمدائني وهشلم
الكلبي والواقدي وغيرهم .

وكون النجم سلسلة من الكتب التاريخية التي غطت تاريخ الاسلام حتى عصوره المتأخرة .

ومن أشهر علماء العرب ومؤرخيهم محمد بن جرير بن جعفر الطبري صاحب التفسير الكبير للقرآن الكريم وتاريخ الرسل والملوك او التاريخ العام الذي وصل به الى عام ٢٩٨ هـ .

وكان الطبري طواف آفاق . طاف في كثير من الاقطار والامصار لتحصيل العلوم والمعارف الانسانية ، وكان متمسكا بالسنن وكفر الخوارج والروافض ولم يستطع قبول ادلتهم ، وتمسك بان لا وراثه بين افراد المذاهب المختلفة في الدين الواحد

/ ويقال ان الطبري قال « حفظت القرآن ولي سبع سنوات وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين ، ورأى لى ابى فى النوم .أتنى بين يدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان معى نحلة مملوءة حجارة ، وأنا أرمى بين يديه ، فقال له المعبر : انه ان كبر نصع فى دينه ، وذبح عن شريعته ، فحرص أبى على معونتى على طلب العلم وأنا حينئذ صبى صغير .

وأشتهر البلاذرى بكتابه فتوح البلدان ، وانساب الاشراف ، ويعالج الكتاب الاول تفاصيل تاريخ البلاد المفتوحة ، وتاريخ علمائها ، والافكار السائدة فيها ، ووسيلة المسلمين الى الفتح . أما الكتاب الثانى فيعالج أحداثا خاصة وروايات معينة .

أما ابن قتيبة فمن كتبه « المعارف » وهو موجز من المعلومات التاريخية عن العصور الاسلامية والحقائق المتصلة بشخصية الرسول ، وجداول الانساب ، وأسماء الفرق وما الى ذلك .

ويعد كتابه « الامامة والسياسة » تاريخا للدولة الاسلامية منذ وفاة الرسول الكريم حتى وفاة الخليفة هارون الرشيد .

أما ابن مسكويه فكان وثيق الصلة برواة الاخبار ، بل انه عاش
بعض الحوادث التي ذكرها في كتبه ، ومن هنا كان الصدق يشيع
في كتابته .

وكان فضلا عن ذلك عارفا بمناهج الادارة والحروب في عصره
غسهل له ذلك مهمة الكتابة في التاريخ ووصف المعارك والحروب .

واشتهر الخطيب البغدادي بكتابه تاريخ بغداد ، ويقال ان
مصدر معارف الخطيب البغدادي مكتبة جمعها من يسمى فيث بن
على الصوري خلف بعد موته عند اخته اثني عشر عدلا محزوما من
الكتب .

فلما خرج الخطيب الى الشام حصل من كتبه ما صنف منها
كتبه وقدرها ٥٥ كتابا .

ويعد كتاب « تاريخ دمشق » من أمتع الكتب التاريخية التي
أخرجها المؤرخون المسلمون وهو من تأليف ابن عساكر على بن
الحسن {٩٩} - ٥٧١ هـ .

وقد كان كثير التنقل بين الحجاز وأصفهان ومرو وهراة
والكوفة مما ظهر اثره واضحا في كتابه .

وردى ان من شيوخه ٣٠٠ رجل وثمانين امرأة .

أما المقرئ فقد اهتم بالعصرين الايوبي والملوكي ، وتعتبر
الخطط التي كتبها المقرئ من أروع الكتب في علم الطبوغرافيا .
وحذا حذوها المربي الكبير على مبارك في الخطط التوفيقية .

أما كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس فقد كتبه
على نظام الحوليات ، وارج فيه كثيرا من الحوادث التاريخية الهامة
كما صور الشخصيات التي ملأت هذه الحقبة من التاريخ بأعمالها
وأثارها .

وعلى الرغم من انه الف الجزء الأخير من كتابه في ظلال الدولة العثمانية فإنه لم يكن يتحرج من وصف الحقائق مجردة دون تزويق ودون تسيق ودون محاورة أو مواربة ، ودون أن يدافع عن وجهة نظر الأتراك .

العلوم الكيماوية :

وفي ميدان الكيمياء برع المسلمون براعة عظيمة ، ووصفوا المعاقير وصفا دقيقا ، وقد تقدمت الكيمياء تقدما عظيما على يد جابر بن حيان .

وقام جابر بتجارب عدة في عمليات الترشيح والترسيب والتقطير والانصهار .

وكان جابر يعرف طرق تحضير أنواع القلويات وملح النوشادر، ونترات الصودا ، ونترات البوتاسيوم .

وقد استطاع جابر بن حيان بفضل تعمقه في دراسة خلائط المعادن أن يجري سلسلة من التجارب أدت الى وضع سلسلة أخرى من المبادئ العلمية المثبتة على أسس صحيحة وقوية من التجربة والاختبار والدراسات الكيماوية التجريبية .

واستطاع جابر لأول مرة في التاريخ أن يستحضر حمض الكبريت وحمض النيتريك كما انه طور نظريات التبخر، والذوبان والتبلور والتحويل من الحالة الجامدة الى البخار Sublimation

واتاح هذا التطور في العلوم الصيدلانية المبني على أسس علمية صحيحة للأطباء العرب أن يجدوا بين أيديهم موادا للتعقيم موقوفة وأن يباشروا العلاجات السريرية بشكل صحيح .

وانتشرت على اثر ذلك الصيدليات في شتى أنحاء العالم العربي بين بغداد وقرطبة .

وكان العرب أول من ابتكر الأنابيب والأوعية الصيدلانية وكانت
أواني جميلة من السيراميك ذات ألوان مشرقة .

وعندما أراد الخليفة هارون الرشيد أن يقدم لشارلمان نماذج
من الصناعة العربية تمنى فكرة صادقة عن تطور العالم العربي
أهدى إليه مجموعة من هذه الأواني الصيدلانية الفاخرة .

وانتشرت مع الصيدليات المستشفيات ، وفي بغداد وحدها
وجدت ستون مستشفى حوالى عام ١١٦٠ .

وفي القاهرة اشتهر مستشفى « منصور » حيث اتبعت طريقة
حديثه في فصل عرق النساء عن الرجال .

وفي بعض المستشفيات استعوض لأول مرة بالكساوى
Cautrisation عن المشرط فكان هذا تطورا في الطب العربى .

وكانت التعبيرات العربية تتغلغل في علوم الكيمياء والصيدلة
والطب مما يشهد بفضل العرب على الحضارة الغربية .

الطب عند المسلمين :

وقد حدد أطباء المسلمين أعراض الأمراض ، ولابن اسحق
مؤلفات كثيرة في هذا المضمار ، وترجم مؤلفات جالينوس في الطب
وجعل شهرته تصل الى علماء الشرق والغرب .

واشتهر « الرازى » بين أطباء المسلمين ويعتبر كتابه « الحاوى »
موسوعة طبية كبيرة .

وعرف الرازى بدراسته عن الزئبق ونظرياته الطبية الكثيرة
والتي طبقت في أوروبا في العصر الايليزائى وخلافة .

وقد امكن بفضل بحوث الرازى التفريق العلاجى بين جدري
الماء Variole والحصبة الحميرة Rougeole وما ورد فى كتبه

من أوصاف الطفح الجلدي والأعراض والالتهابات يدل على علو كعبه في المعارف السريرية العميقة .

وترجم كتاب الرازي المعروف بكتاب « الأسرار » في القرن الثاني عشر الميلادي وقام بترجمته جيرار كريمونه فكان لروحيته باكون مرجعا رئيسيا في بحوثه التجريبية في الطب .

وكان الرازي أول من أعطى علاجات مختصة بالالتهابات العصبية النفسية كما أنه اهتم بالعلاجات التي تفيد في حالات الصداع .

ومن هذه العلاجات نجد الكي والدهن بزيت الورد أو زيت السانتال .

وقد خصص الرازي في كتبه فصولا للتحدث عن الجراحة ، وأشار الى استعمال اوتار القيثارة في رفق الجراح .

ويقدم الرازي عرضا جيدا للبتر والفتق ولا يعتبرهما انقساما Rupture ولكنه يصفهما بأنهما يحدثان كنتيجة لتمدد في المجرى المؤدى من التجويف البطنى والخصيتين .

أما (ابن سينا) فقد اشتهر كأحد كبار الفلاسفة بيد أنه كان خبيرا بالطب والصيدلة وكان خبيرا بالموسيقى كذلك .

واقام ابن سينا مبدا انتقال المرض عن طريق العدوى . وأشهر مؤلفات ابن سينا كتاب « القانون في الطب » وهو موسوعة طبية كبيرة ومرجع علمي نفيس .

وكان لهذا الكتاب اثر بالغ على الاطباء حتى القرن السادس عشر الميلادي وبلغ من شهرة مؤلفاته الطبية أن العالم (باراسيلز) عند رجوعه من مدينة « بال » بسويسرة عمد الى احراق مؤلفات غاليلان وابن سينا كرمز لتحريره الطب من استرقاق هبيلين العالمين .

وسار العلماء فترة طويلة من الزمن على هدى نظريات ابن
سينا المتعلقة بالطب العصبى النفسى .

وكتب ابن سينا فى خزع الاوردة واستئصالها ، واستعمال
الاربطة للدوالى مشيدا بالطرق الجراحية موضعا اياها بالرسوم .
واشتهر فى الأندلس « ابن زهر » وكتابه التيسير اعتمد فيه
على تجاربه الطبية الخاصة ، وشاع استخدام مؤلفاته فى الطب .
اما ابن رشد فكان له نصيب مشكور فى الطب وتعد موسوعته
« الكليات » من اخصب الكتب فى الطب .

وفىها قرر ابن رشد الحقيقة التى تنص على ان الشخص
لا يعدى مرتين من الجدرى كما أوضح فيها وظيفة الشبكية .
ولكن ابن رشد الطبيب قد غطى عليه تماما ابن رشد
الفيلسوف والشارح .

واشتهر ايضا من الأطباء المسلمين « الزهراوى » ويعتبر أول
عالم تعرض لوصف وعلاج كسور الحوض وصفا مفصلا .
كما يعتبر الزهراوى أول طبيب - على ما يبدو - قال بإمكان
الدخول الى مجرى السمع الخارجى عن طريق جراحة تجرى فى
أسفل الأذن .

وعمم الزهراوى على طلابه وصية حكيمة فحواها « حذار من
اجراء اية جراحة قبل أن تتأكد من الموقع الدقيق للمجرى
الدموية والأعصاب والوتار » .

وقد تعرض الزهراوى فى كتبه الى امراض البرص وذكر انه
أربع أنواع وتعرض الى دراسة مفصلة عن مراحل المرض وعرض
مسبب لاسبابه وعمله .

وترجم بعض فصول كتابه التسمى « التبريف لمن عجز عن
التأليف » الى اللغة اللاتينية .

ولخص الزهراوى فى الجزء الاخير من كتابه المعلومات الجراحية فى عصره واهتم بتوضيح الآراء الجديدة مثل كى الجروح وتفتيت الحصوة فى داخل المثانة واهمية التشريح والفحص الدقيق .

وترجم جيرار الكريمونى Gerard of Cremona الجزء المتعلق بالجراحة الى اللاتينية ونشرت طبعت مختلفة منه فى البندقية عام ١٤٩٧ وبال Basel ١٥٤١ واكسفورد ١٧٧٨ .

وظل الكتاب محتفظا بمكانته عدة قرون كمرجع مدرسى فى الجراحة فى كل مدارس سالرنو ومونيليه .

وفى الزراعة اشتهر من المسلمين ابن العوام ويعتبر كتابه الفلاحة من امتع الكتب فى هذا الميدان .

وقد اوضح فى هذا الكتاب احوال الزراعة فى العصور الوسطى .

علم النبات عند المسلمين :

وفى علم النبات برع ابن البيطار وله كتابان شهيران هما « المغنى فى الادوية المفردة » و « الجامع فى الادوية المفردة » وهو عبارة عن مجموعة من الادوية البسيطة المأخوذة من عوالم الحيوان والنبات والمعادن .

وكتب ابن البيطار اوصافها باليونانية والعربية و اضاف اليها ما اجراه شخصا من التجارب والبحوث .

وهذا الكتاب الاخير يعتبر أقدم مؤلف من نوعه فى العصور الوسطى .

وذكر فيه ابن البيطار ما يقرب من ١٤٠٠ مادة كان من بينها نحو ٣٠٠ من مبتكراته الجديدة .
ومن بين هذه الثلاثمائة نحو مائتين من النبات .

١٠ اما المؤلفون الذين نقل عنهم ابن البيطار فتبلغ عدتهم نحو ١٥٠ كان من بينهم ٢٠ افريقيا .

وطبعت أجزاء من ترجمة كتاب ابن البيطار باللاتينية تحت عنوان « الادوية البسيطة » Simplicia اواخر عام ١٧٥٨ م في مدينة كريمونا .

الفاظ أوروبية ذات اصل عربى :

ووجدت في اللغات الأوروبية بعض الكلمات ذات الأصول العربية مما يدل على اثر العرب في الحضارة العربية .
ومن هذه الكلمات على سبيل المثال :

Alchemy		الكيمياء
Alchitran		القطران
Alcohol		الكحول
Alembic		الانبيسق
Attar		عطر
Naphtha		نפט
Saffron		زعفران
Elixir		الاكسير
Arsenic		زرنيخ
Natron		نطرون
Tabasheer		تباشير
Tartar		طرطير
Alkali		القلوى
Syrup		الشراب
Soda		الصداغ

غير ذلك من الكلمات التي تقتصر على علوم الكيمياء والطبيعة
والطب أى تغفلت في التجارة والفلك مثل :

Denab	الذنب
Pherkad	الفرقد
Alegdi	الجدي
Acrab	العقرب
Admiral	اميرال
Arsenal	ترسانة
Tarif	تعريفة

وغير ذلك من الكلمات :

العلوم الشرطية عند المسلمين :

واشهر العرب في العلوم الشرطية والعسكرية ، والطريف ان
العرب توصلوا الى وظائف الشرطة ، وكان عثمان بن عفان اول من
اتخذ صاحب شرطته عبد الله بن منقذ .

وتبع الخلفاء عثمان فكان على شرطة على معقل بن قيس
الرياحي ، ومالك بن حبيب اليربوعي وعلى شرطة معاوية يزيد بن
حارث العابي .

ويصح ان يكون منصب صاحب الشرطة موجودا في عصر
النبي - صلى الله عليه وسلم - وذلك لانه صلى الله عليه وسلم
كان يسند اقامة الحدود بين يديه لعلى بن ابي طالب والمقداد بن
الاسود .

ووضح العلامة ابن خلدون دور الشرطة في الدولة الاسلامية
فكتب يقول : « اصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم احكام

الجرائم في حال استبدائها أولا ثم الحدود بعد استيفائها ، فان التهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشرع الا في استيفاء حدودها وللسياسة النظر في استيفاء موجباتها باقرار يكرهه عليه الحاكم اذا اختفت به القرائن لما توجيه المصلحة العامة في ذلك ، فكان الذي يقوم بهذا الاستبداد ، وباستيفاء الحدود بعده اذا نثره عنه القاضي ، ويسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا اليه النظر في الحدود والدماء باطلاق وافردوها عن نظر القاضي ، ونزههوه هذه المرتبة ، وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ، ولم تكن عامة التنفيذ في طبقات الناس انما كان حكمهم على الدهماء واهل الريب والضرب على ايدي الرعاع والفجرة .

وفي عيون الاخبار عن الشعبي قال قال الحجاج : دلوني على رجل للشرطة فليل اي الرجال تريد ؟ فقال اريده دائم العيوس ، طويل الجلوس ، سمين الامانة ، اعرج الخيانة . لا يحق في الحق على جرة ، يهون سبال الاشراف في الشفاعة عليه .

ولما وجه ابن هبيرة مسلم بن سعيد الى خراسان قال : اوصيك بثلاثة : حجاجك فانه وجهك الذي به تلقى الناس . ان احسن فانت المحسن ، وان اساء فانت المسيء ، وصاحب شرطتك فانه سوطك وسيفك فانت وضعتهما حيث وضعهما .

وهكذا نبغ العرب في العلوم الشرطية ، ولو اننا تأملنا في نظام الامن العام في العصر الحديث لوجدناه لا ينكر نظام العرب بل انه يستمد منه بعض اصوله الاولى في صورة واضحة .

العلوم العسكرية عند المسلمين :

وفي العلوم العسكرية بلغ المسلمون شأوا عظيما وآمنوا المسلمون بالمثل القديم القائل « الشجاعة صبر ساعة » .

فهذا السلاح الذي يدعو اليه قواد الاستراتيجية العالمية
يقهر الجيش من هم أكثر منه عددا وأجزل عددا وأوفى مددا .

ولقد تكررت كلمة الصبر ومشتقاتها في القرآن الكريم بصورة
واضحة بينة من صبر ، يصبر ، أصبر ، الصابرون الخ .. مائة
مرة ومرة تدور في أربع وأربعين سورة .

وحسب الصبر فضيلة اذ يقول الله تعالى فيه : « وبشر
الصابرين » سورة البقرة ١٥٥ .

ويقول تعالى : « والله يحب الصابرين » آل عمران ١٤٦ .

ويقول تعالى : « والله مع الصابرين » البقرة ٢٤٩ .

ويقول تعالى : « ان الله مع الصابرين » البقرة ١٥٣ ،
الأنفال ٤٣ .

ويقول الله تعالى كذلك في قوة الصبر وبأس الصابرين مع
المقاتلين :

« يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، ان يكن منكم
عشرون صابرون يفلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يفلبوا الفا من
الذين كفروا بانهم قوم لا يفقهون » الأنفال ٦٥ .

وقال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله
لعلكم تفلحون » آل عمران ٢٠٠ .

وقد كان القرآن الكريم مصدرا من مصادر العلوم العسكرية
التي نبغ فيها العرب واستمد منها المسلمون خططهم في ملاقات
اعدائهم .

ودعا الله سبحانه وتعالى المسلمين الى الاستعداد للاقصة
اعدائهم وتجهيز طاقاتهم للهجوم على الخصوم فقال عز وجل :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم »
الأنفال

وقال عز وجل :

« كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » البقرة :

وقال تعالى : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم » التحريم :

وقال تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » سورة محمد .

وقال تعالى : « فإما تثقفنهم في الحرب ، فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون وإما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » الأنفال .

وقال تعالى : « واطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا ، فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » الأنفال .

فمن هذه الآيات البيّنات استطاع العلماء المسلمون أن يضعوا قواعد الاستراتيجية العربية الموفقة .

وكان لها اثرها الواضح في المعارك الكبرى التي خاضها المسلمون مثل معركة بدر والخندق وفتح مكة والقادسية واليرموك وبيت المقدس وغيرها من المعارك الحربية .

وقد كان الرسول الكريم قائدا مغوارا ، ومثالا رفيعا في الشجاعة والاقدام ، رسم الخطط الحربية لأصحابه ، فكفل لهم النصر المبين ، والغوز العظيم .

وزوى الامام البخارى بسنده ان رجلا سال البراء بن عازب
رضي الله عنه : افررتم يوم حنين عن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم ؟ - قال : نعم ، لكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
لم يفر .

قيل فما رأى يومئذ أحد أشد منه الى ان قال : فلما التقى
المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - يركض بغلته نحو الكفار .

وعن على - رضي الله عنه - قال : « انا كنا اذا حمى البأس ،
واحمرت الحديق اتقينا برسول الله - صلى الله عليه وسلم -
لئلا يكون أحد اقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن
فلوذ بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وهو اقربنا الى العدو ،
وكان من أشد الناس يومئذ بأسا ، وقيل : كان الشجاع هو الذى
يقرب منه - صلى الله عليه وسلم - اذا دنا العدو لقربه منه .

ودعا الرسول الكريم الى الصبر على الشدائد والجهاد
فقال - صلى الله عليه وسلم - (الجنة تحت ظلال السيوف)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ايضا (والذى نفسى
بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا يطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى
ولا اجد ما أحملهم عليه ، ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل
الله ، والذى نفسى بيده لوددت أن أقتل فى سبيل الله ، ثم احيا
ثم أقتل ، ثم احيا ثم أقتل ، ثم احيا ثم أقتل) .

فأى شجاعة أروع من هذه الشجاعة وأى اقدام أوقع من هذا
الأقدام .

لقد كان القرآن الكريم والحديث الشريف مصدرين خصيين من
مصادر العلوم العسكرية وتلقين دروس البطولة والشجاعة
والاقدام .

وانذلك نبغ من المسلمين ابطال مجاهدون منهم سيف الله
المسلول خالد بن الوليد ، وسعد بن ابي وقاص - وعمرو بن العاص
وطارق بن زياد ، وعقبة بن نافع ، واسد بن الفرات وغيرهم من
ابطال المعارك وكما الفتوحات .

وكان هؤلاء القادة خبراء في خططهم العربية ، علماء في الفن
الحربي بأوسع معاني هذه الكلمة وأدق مدلولات هذا اللفظ .

وكان جيش المسلمين مقسما الى مقدمة ، وساقه ، ومؤخرة
، وجناحين ، وكانت الخطط الحربية توضع قبل الهجوم أو الدفاع ،
اذ لم تكن الحرب تسير اعتباطا أو ارتجالا انما كانت تتبع خطة
حكيمه وفكرة رشيدة من القائد العام .

وكان المسلمون يحرصون كل الحرص على اختيار القائد العام ،
فكان خبيرا لشئون الحرب ، واسع المعارف ، عظيم الادراك ، قوى
الشكيمة ، مسموع الكلمة ، موفور المهابة . محيطا بنفسية
الجنود ، ملما بطبيعة الأرض وأحوال البلاد .

التجارة عند المسلمين :

وفى ميدان التجارة وصل العرب الى المحيطين الهندي والهادى
الى أوربا وجنوب افريقيا .

وكانت التجارة مهمة بالنسبة الى العالم الاسلامى ، وتوغل
التجار المسلمون فى شتى القارات ، وفكر خليفة عربى هو هارون
الرشيد فى حفر قناة تخترق برزخ السويس ، قبل أن يفكر فى
ذلك دى لسيبس بالف سنة .

ونشطت التجارة كذلك بين المسلمين والشمسوب التى تقطن
مطقة نهر الفولجا فى روسيا .

أما بحر الخرز فانه بسبب قربه من المراكز الفارسية الهامة
والمدن الناهضة كسمرقند وبخارى وما يتصل بها فانه كان مسرحا
لحركات تجارية نشيطة .

وبلغ متوسط الدخل السنوى لبعض تجار البصرة الذين كانت
سفنهم تحمل المتاجر الى أقصى بقاع العالم أكثر من مليون درهم .
وكان أحد التجار فى البصرة يوزع صدقه قدرها مائة ألف
دينار فى اليوم .

وقد عينه الخليفة المعتصم وزيرا له فى فترة من الفترات
وقد ساعد الاسلام على نمو التجارة بما وضعه من قواعد سليمة
فى المعاملات فضلا عن الوفاء بالعهود وإداء الأمانات الى أهلها
كانت خير ضمان للمتعاملين فى نطاق التجارة من الاطمئنان الى
الحقوق المتبادلة .

وكانت الثقة بين الطرفين عاملا هاما من عوامل الرواج التجارى
وهذه الثقة يعبر عنها الاقتصاديون المعاصرون بكلمة الائتمان
بمعنى أن الثقة تفترض الأمانة أو الاطمئنان أو الارتكان الى ذمة
شخص ، وتنعكس فى قبول شخص منح الآخر أجلا للوفاء بدين

المعاملات التجارية فى القرآن الكريم :

وقد جاءت فى القرآن الكريم آيات بينات مبينة احكام
المعاملات الدنيوية

ومنها هذه الآية الكريمة « يا ايها الذين آمنوا اذا تعاييتم
بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ،
ولا ياب كاتب ان يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذى
عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذى

عليه الحق سفيها أو ضعيفا ، أولا يستطيع ان يعمل هو فليعمل
وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا
رجلين ، فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل
احدهما فتذكر احدهما الاخرى ، ولا ياب الشهداء اذا مدعوا ،
ولا تساموا ان تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى اجله ، ذلكم القسط عند
الله واقوم للشهادة ، وادنى الا ترتابوا ، الا ان تكون تجارة حاضرة
تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها ، واشهدوا اذا
تباعدتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ،
واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم » .

وهكذا كان القرآن الكريم دستورا للمعاملات بين التجار بل
بين الناس جميعا .

فان مقتضيات التجارة قد تفرض على التاجر قبول التعامل
بأجل ، أى منح زملائه من التجار آجالا للوفاء كما يحصل هو بدوره
على آجال من التجار الذين يتعامل معهم .

فخصت هذه الآية الكريمة بالحث على كتابة (الديون الاجلة)
وتركت بعد ذلك الباب مفتوحا .

ودعا القرآن الى التعاون بين الناس فقال عز وجل (وتعاونوا
على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان)

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الناس أحب الى
الله فقال « انفع الناس للناس »

كما قال الرسول الكريم : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من
فى السماء » .

ونادى الاسلام بمبدأ المساواة فى الحقوق والواجبات وهو من
المبادئ الأساسية التى اقترتها الوثائق الدولية لحقوق الانسان

وبيع طائفة من تلاميذ أولئك الأئمة وأصحابهم مثل القاضي أبو يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، وعبد الرحمن بن القاسم وغيرهم .

وفي العصر العباسي الثاني نضج علم الحديث الذي اشتغل به جماعة كبيرة في أنحاء البلدان الإسلامية أكثرهم في المدينة ومصر والكوفة والبصرة في العصر العباسي الأول نذكر منهم ابن جريج ت ١٤٩ هـ (بغداد) والأوزاعي ١٥٧ هـ (بيروت) وابن عيـاش ١٩٣ هـ (الكوفة) وابن نافع الصنعائي ٢١١ (في اليمن) وعبدالله ابن عبد الحكم ت ٢١٤ هـ في مصر ويحيى بن معين الحافظ ت ٢٣٣ هـ (في المدينة)

نضج في العصر العباسي الثاني علم الحديث ووضعت الكتب الستة المشهورة في الحديث وأصحابها البخاري (ت ٢٦٥ هـ) ، وكان قد رحل لسماع الحديث الى شتى الأمصار والمدن وشهدله معاصروه لعلم الرواية والدراية وهو صاحب كتاب (جامع الصحيح) المشهور بصحيح البخاري .

ومسلم القشيري وتوفي سنة ٢٦١ هـ والـف كتابا سماه الجامع الصحيح وقد طبع في الهند عام ١٢٦٥ وفي مصر في تسعة أجزاء . وابن ماجه (توفي سنة ٢٧٣) وهو صاحب كتاب « السنن » وقد ارتحل في طلب العلم الى البصرة والكوفة وبغداد ومكة والشام ومصر .

وأبو داود توفي عام (٢٧٥) وقد الف كتابا اطلق عليه (السنن) وتعرف بسنن الامام ابي داود .

والترمذي توفي عام ٢٧٩ هـ وله كتاب الجامع الصحيح

والنسائي توفي سنة ٣٠٣ هـ وهو صاحب كتاب السنن المعروف باسمه .

أما فى التفسير فقد ظهر عند المسلمين علماء بارزون نذكر منهم الطبرى صاحب التفسير الكبير .

الطبرى وتفسيره :

وقد كان الطبرى فى تفسيره يعتمد على روايات الصحابة والتابعين .

وكان لا يقبل ما لم يجرىء به نص صريح فى القرآن الكريم وما يدخل فى باب الحدس والتخمين ومثال ذلك موقفه من تفسير الآيات البينات .

« اذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء ، قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين ، قالوا نريد ان ناكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ، قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وانت خير الرازقين ، قال الله انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد ميثم فانى اعدبه عذابا لا اعدبه احدا من العالمين » .

فقد تساءل المفسرون هل كان على هذه المائدة طعام وهل كان سمكا ام خبزا ام من ثمرات الجنة ام غير ذلك

ولكن ابن جرير الطبرى قال ان العلم بذلك غير نافع ، فلم يرض أن يفتى فيما لا يعلمه الا الله تعالى .

وكان الطبرى ملما بالشعر والأدب مما ظهر اثره واضحا فى تفسيره ، وقد اتسع فى تفسيره بالوجهة اللغوية ، كما اتسع أيضا بالشعر وروايته .

ويذكر ياقوت فى ترجمته أنه كان يحفظ كثيرا من الشعر . ولما جاء الى مصر فى طلب الحديث كان يحفظ حتى شعر الطرماح

وتعرض له الأدباء يسألونه عن الشعر ، فراوه بارعا فيه
فسألوه عن شعر الطرماح ولم يكن من بينهم من يحفظه فاذا هو
يحفظه .

وهذه المعرفة الواسعة بالشعر القديم وغريبه أتاحت لابن
جرير مادة واسعة في تفسيره من حيث استشهاده بالشعر مرات
عدة .

ورفض ابن جرير الطبري أن يفتح بابا في تفسيره الى
الاسرائيليات كما اعترف بذلك المستشرق جولدبير في كتابه عن
التفسير في الاسلام .

وظهر بعد الطبري جماعة كبيرة من المفسرين منهم النقاش
الموصلى المتوفى عام ٣٥١ هـ صاحب كتاب « شفاء الصدور »

وظهر الحوفى المصرى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ صاحب كتاب
البرهان فى تفسير القرآن .

وظهر غير هؤلاء جمهور كبير من المفسرين ، اختلفت مناهجهم
وتباينت طرقهم . . بين اهتمام باللغة أو بالفقه أو بالقصص الى
غير ذلك . .

علوم الحديث :

اما الحديث فاستقرت قواعده بعد الكتب الستة الآتفة الذكر
بيد انه ظهرت من المؤلفين فى هذا العلم طائفة جديدة .

ومن هذه الطائفة الحاكم النيسابورى المتوفى عام ٤٥٠ هـ
وابو الفتح سليم بن ايوب الرازى المتوفى عام ٤٤٧ هـ والبيهقى
المتوفى عام ٤٥٨ هـ .

وظهر الفراء النبوى المتوفى عام ٥١٦ هـ فى القرنين الخامس
والسادس الهجريين وله كتاب « مصابيح السنة » فى الحديث .

كما ظهر ابو العباس التجيبى الاندلسى المتوفى عام ٥٥٠ هـ .
وله كتابان .

١ - الكوكب الدرى المستخرج من كلام النبى .

٢ - الدر المنظوم فيما يزيل الهموم والغموم

وظهر ابو السعادات المبارك مجد الدين بن الأثير الجزرى
المتوفى فى أوائل القرن السابع الهجرى .
وله عدة كتب مفيدة نذكر منها :

١ - جامع الأصول فى احاديث الرسول ورتب فيه
الأحاديث على الحروف الابجدية حسب موضوعاتها .

٢ - النهاية فى غريب الحديث والأثر فى اربعة مجلدات
ومرتب أيضا على الحروف الأبجدية .

كما ظهر جماعة كبيرة من الفقهاء نذكر منهم ابن حزم
الظاهرى صاحب كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، وكتاب
جمهرة النسب فى معرفة قبائل العرب أو جمهرة الانساب
والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من المؤلفات القيمة .

الفلاسفة المسلمون

وظهر ابو حامد الغزالى المتوفى عام ٥٠٢ هـ ومؤلف كتب
البسيط ، والوسيط المحيط بأقطار البسيط ، وتهافت الفلاسفة ،
والمنقذ من الضلال ، واحياء علوم الدين ، وجواهر القرآن وغير ذلك
من المؤلفات النفيسة .

وقد برع الغزالى فى الدين والفلسفة والتصوف ، وكان حديثه
عن السببية يفوق احاديث عباقرة الفلاسفة فى أوربا .

وهو لا ينكر السبب ، ولكنه يفسره التفسير الذى يقره عقله ،
ولا يستطيع أن يقره بغير هذا التفسير .

والأسباب عند الغزالي هى المقارنات التى تجرى بها العادة
أو كما قال فى تهافت الفلاسفة « أن استمرار العادة بها مرة بعد
أخرى يرسخ فى أذهاننا جريانها على وفق العادة الماضية
ترسخا لا تنفك عنه »

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى توضيح السببية عند
الغزالي وهى من النظريات العلمية التى نادى بها العلماء فى الغرب :
« كان الغزالي أصح قياسا من دافيد هيوم ، لان دافيد هيوم
يمنع المعجزة ولا يقبلها »

« وغاية ما يستند اليه فى هذا المنع ان التواتر فى حوادث
المعجزات المروية لا يثبتها مع أن التواتر عنده لا يدل على السبب
الفاعل ، ولا يبطل السبب الفاعل من باب أولى .

« نعم انه يتحفظ فيقول ان المعجزة ممتنعة بحسب ما نعلم
من تجاربنا المألوفة ، ولكن هذا التحفظ من قبيل تحصيل الحاصل
لان المعجزة هى مخالفة ما نعلم من التجارب المألوفة .

فكأنه يقول ان المعجزة ممتنعة لانها معجزة او انها مخالفة
للمألوف لانها مخالفة للمألوف .

« والغزالي أصح قياسا من « جون ستيوارت مل » حين يقول :
« ان مسألة المعجزة يمكن ان توضع وضعا منصفيا حين يقال
انها قائمة على موازنة بين الأدلة أو بين مقدار من البيانات الإيجابية
تدعيها ، ومقدار من التقديرات ينفيها من التجربة الإنسانية العامة
التي تمنعها »

موسوعات اللغة عند المسلمين

وظهرت فى العربية موسوعات كبيرة فى اللغة كتبها عدد من العلماء المسلمين الذين توفروا على دراسة اللغة دراسة وافية متينة .

فظهر كتاب الاشتقاق والجمهرة لابن دريد ، وكتاب اللمع فى النحو ، ومختصر القوافى لابن جنى ، وكتاب الايضاح لأبى على الفارسى .

كما ظهر التهذيب للأزهري ، والمجمل لابن فارس ، والمحكم والمختص لابن سيديدة ولسان العرب لابن منظور ت عام ٧١١ ، والقاموس للفيروزابادى ت ٨١٧ .

هذا بالإضافة الى الكتب الزاخرة فى الأدب ككتاب الأغنى ، وأمالى القالى وأمالى المرتضى ، والتكميل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ ، ونهاية الأرب للنويرى وكتاب المعارف لابن قتيبة ، وغير ذلك من الكتب الأدبية .

فاذا أضفنا الى ذلك كله التراث الشعرى الخالد ، وشعر الشعراء فى صدر الاسلام والعصور الأموية والعباسية وفى الأندلس والعصور العثمانية حتى العصر الحديث التضحجت أمامنا معالم امجاد المسلمين وتفوقهم فى كل فن ونبوغهم فى كل مجال .

الرحلات عند المسلمين

اما الرحلات فقد قطعوا شوطا كبيرا فيها وجالوا فى شتى الأقطار والأمصاير وكان من أشهر هؤلاء الرحالين ابن جبير وأبو حامد المازنى من أهل غرناطة فى الأندلس .

وقد قام ابن جبير فيما بين سنتى ١١٨٣، ١١٨٥ م برحلة من غرناطة الى مكة وعاد بنفس الطريق ، وزار مصر والعراق والشام .

وكان بعض هذه الأجزاء فى ايدى الصليبيين ، كذلك زار ابن جبير صقلية ثم رحل الى الشرق بعد ذلك مرتين .

المرة الأولى فيما بين سنتى ١١٨٩ ، ١١٩١ ، والثانية عام ١٢١٧ ولكنه فى الرحلة الأخيرة لم يصل الا الى الاسكندرية فحسب حيث قضى نحبه فيها .

أما ابن بطوطة فكان جواب الآفاق المسلم فى القرون الوسطى وقد قام بأربع رحلات الى مكة اغتنم فرصة الحج فيها المطواف حول العالم الاسلامى فطاف فى الشرق حتى وصل الى سيلان والبنغال وجزائر مالديف والصين كما زار القسطنطينية .

وكانت آخر رحلاته عام ١٣٥٣ هـ التى توغل فيها فى افريقيا

كما اشتهر من العلماء ابن حوقل صاحب كتاب « المسالك والممالك » والاصطخرى صاحب كتاب الأقاليم وكتاب مسالك الممالك .

وقد زاد ابن حوقل فى كتابه بعض الاضافات على كتاب الاصطخرى .

كما كتب المقدسى (توفى ٣٧٥) كتاب احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، وضمنه رحلاته المختلفة وتجاربه وقراءاته واستقراراته . ويمكن تقسيم الرحلات التى تمت فى العصور الاسلامية على الوجه الآتى .

رحلات تمت بعد ظهور الاسلام مثل رحلات ابن موسى المنجم ، وسلام الترجمان واليعقوبى وقد حدثت فى القرن التاسع للميلاد .

وفى القرن العاشر للميلاد ظهرت رحلات ابن فضلان والمسعودى والمقدس وابى دلف .

وفى القرن الحادى عشر للميلاد ظهرت رحلات البيرونى .
 وفى القرن الثانى عشر للميلاد ظهرت رحلات الأدرسى وابن
 جبیر وإبى حامد الغرناطى وإسامة بن منقذ .
 وفى القرن الثالث عشر للميلاد ظهرت رحلات عبد اللطيف
 البغدادى وياقوت الحموى وابن سعيد والعبدى والتجاني .
 وفى القرن الرابع عشر كان على رأس الرحلات العربية
 الإسلامية رحلات ابن بطوطة .

وفى القرن الخامس عشر للميلاد ظهرت رحلات الظاهرى
 والملك قايتباى وغيرهما

وفى العصر الحديث ظهرت رحلات أحمد فارس الشدياق
 وأمين الريحانى وغيرهم كما ظهرت رحلة رفاعة الطهطاوى الى باريس
 فى كتابه المعروف « تخليص الأبريز فى تلخيص باريز » .

ولاشك ان هؤلاء الرحالة والجغرافيين كانوا خير رسل
 لنشر الثقافة الإسلامية ، وحمل الدين الإسلامى الى ماوصلوا اليه
 من بقاع بعيدة ، وأقطار نائية .

وقد كان الدين الإسلامى المنارة التى يسيرون على هديها ،
 والشعلة المتقدة التى تنوّهج فى قلوبهم وتزيدهم إيماناً ، وتملاهم
 قوة وثباتاً .

وقد كان الإسلام دائماً يدعو الى الحركة ويستنكر الكسل
 والخمول ، ولما قبض النبى عام ٦٣٢م خلفه من بعده الخلفاء الذين
 وجهوا جيوشهم الى الشام وفارس والعراق فافتتحوها كما
 افتتحوا ارمينيا والقوقاز وتوغلوا فى بلاد الروم .

كما استولى المسلمون على تركستان ونزلوا الى أرض الهند ،
 وواصلوا زحفهم الى سيمون وجيخون وادى مهران بالهند .

وفى الغرب استولوا على مصر والنوبة وبرقة وعبروا جبل طارق الى الاندلس حيث استمر حكم المسلمين فى هذه البلاد فترة طويلة من الزمن .

وبلغ سلطان المسلمين حدود جبال البرانس ، وتوغل أثرهم فى فرنسا وأوربا جميعا .

وعبروا وادى الرون فى أوربا وسهول لمبارديا فى إيطاليا . فضلا عن احتلالهم للجزر القابضة فى البحر الأبيض المتوسط .

رجلات الرسول الكريم :

وكان الرسول الكريم يعمل فى التجارة وكان يضرب فى فجاج الأرض وطوف فى الصحراء .

وكانت الفترة التى عمل فيها مع خديجة رضى الله عنها من انخسب الفترات فى حياته حركة وأكثرها سفرا واحفلها بالرحلة .

وسافر الرسول بالتجارة الى الشام أكثر من مرة فذهب به عمه ابو طالب الى بصرى وهو فى الثانية عشر من عمره .

وهناك لمح فيه راهب اسمه بحيرا علامات النبوة بعد أن سأل عن أمور فى نومه ويقظته .

وسافر الرسول الى الشام وهو فى الخامسة والعشرين مع ميسرة غلام السيدة خديجة فربحت التجارة ربعا وفيرا .

وعندما شعر المسلمون - بعد بعثة الرسول - بالضيق هاجروا الى الحبشة وكان الرسول لما أصاب أصحابه من البلاء قال لهم : « لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » .

وقد هاجر عشرة رجال وأربع نسوة ، ثم زاد عددهم حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلا وسبع عشرة امرأة سوى الصبيان وكلهم من بطون قريش .

وكان فيهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول والزبير ابن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وجعفر بن أبي طالب وامراته أسماء بنت عميس وعمر بن سعيد بن العاص بن أمية وأخوه خالد بن سعيد بن العاص .

وقد أكرمهم النجاشي وأمنهم على حياتهم وأصبحوا في رغد من العيش واضطر الرسول نفسه أن يرعى البعثة لحساب غيره ، وذهب عليه السلام بالتجارة الى بلاد اليمن والشام .

العلم والعمل :

فالاسلام والعلم صنوان لا يفترقان ، والانسان يمتاز عن الحيوان بقوة العقل والفعل وسلامة التفكير وقوة التدبير وسلامة التعبير .

والله سبحانه وتعالى فرق في كتابه العزيز بين السذيين يعلمون والذين لا يعلمون فقد قال جل ثناؤه (قل هل يستسوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

وقال صلى الله عليه وسلم « الايمان عريان ولباسه التقوى ، وزينته الحياء وثمرته العلم » .

وقال ايضا « اذا أتى على يوم لا ازداد فيه علما يقربنى من الله عز وجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم »

وقال ايضا « العلماء ورثة الانبياء »

وفى حديث آخر « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ويلهمه رشده »

ودعا الاسلام الى نشر العلم وعدم التوانى فى ذلك ، حتى يتم الخير بين أبناء الانسانية ، ويسود الفضل بينهم .

فقال تعالى فى كتابه العزيز « فلولوا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم ، اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون »

وقال تعالى « واذا اخذ الله ميثاقى الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه »

وقال الرسول الكريم « افضل الصدقة ان يتعلم المرء المسلم علما ، ثم يعلمه اخاه المسلم »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ايضا « ان الملاكمة لتضع اجنتحتها لطالب العلم »

وكما دعا الاسلام الى العلم دعا الى العمل والسعى فى طلب الرزق والانتشار فى فجاج الارض

فقال تعالى « فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله » وقال تعالى « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ».

وقد قسم الله عز وجل المعيشة بين الناس فقال جلت صفاته « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا »

اما الرسول - صلى الله عليه وسلم - فانه دعا كذلك الى العمل فقال : (من طلب الدنيا حالا وتعافى عن المسكنة وسعياعلى عياله، وتعطفا على جاره لقى الله ووجهه كالقمر ليلة البدر » وقال عليه السلام « ان الله يحب العبد يتخذ المهنة يستغنى بها عن الناس »

وقال عمر بن الخطاب فى الحث على العمل (لا يقعد أحدكم
عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى وقد علمتم أن السماء لا تمطر
ذهبا ولافضة)

وقال الامام محمد عبده فى فضل العلم « المسلمون مسوقون
بنابل دينهم الى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد
ولايرضيه من ذلك مادونه الغاية ، ولايتوفر شىء من وسائل
ذلك الا بالعلم »

وفى الفصول القادمة سوف نتحدث عن نخبة من الرحالة
والعلماء المسلمين الذين كرسوا حياتهم للعلم والعمل آملين أن
نتمكن من اعداد مادته او فصول من الامام بشخصيات أخرى
لها دور كبير واثر جليل وفضل عظيم على الثقافة العربية والعالم
الاسلامى .

الفصل الثاني
مشاهير علماء المسلمين

ابن بطوطة

رحالة مشهور اسمه محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي . ولد في مدينة طنجة ببلاد مراكش في السابع عشر من شهر رجب عام ٧٠٣ هـ (٢٤ فبراير ١٣٠٤ م) .

وقد نشأ في بسطة من العيش ، وسعة من الرزق ، ثم خرج من مدينة طنجة وهو في الثانية والعشرين من عمره قاصدا الحجاز لأداء فريضة الحج ، فمر بمراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر ، ثم قصد الى عيذاب على البحر الأحمر مارا ببلاد الصعيد ليعبر البحر الأحمر ، فلم يتهيا له العبور ، فعساذ الى الفسطاط ثم رحل عنها الى فلسطين ولبنان وسورية والحجاز ، فحج حجته الأولى ، ومن مكة سافر الى بلاد العراق والأناضول ، ثم عاد الى مكة حيث حج الى بيت الله الحرام للمرة الثانية . وظل بمكة سنتين ثم غادر البلاد الى اليمن ، وعبر البحر الى أفريقية الشرقية ، ثم رجع منها مارا بجنوب جزيرة العرب حتى الخليج العربي ، فزار عمان والبحرين والاحساء . ثم عاد الى مكة حيث أدى فريضة الحج للمرة الثالثة ، ثم خرج من مكة الى بلاد الهند مارا بخوارزم ، وخراسان ، وتركستان ، وأفغانستان وكابل ثم السند . وتولى هنالك القضاء في دهل على المذهب المالكي للسلطان محمد شاه .

ولما أراد السلطان محمد أن يرسل وفدا الى ملك الصين خرج ابن بطوطة فيه ، وفي طريق عودته مر بجزيرة سرنديب وجزائر الهند

والصين ، ومن هناك عاد الى بلاد العرب من طريق سومطرة عام ١٣٤٧ م ، فزار بلاد العجم والعراق وسوريا وفلسطين ، ومنها عاد الى مكة للمرة الرابعة ، وادى فريضة الحج . وعندئذ تاق الى العودة الى مسقط رأسه ، فمر بمصر وتونس والجزائر ومراكش ، ووصل فاس عام ١٣٤٩ م .

ولم يمكث ابن بطوطة في وطنه طويلا ، بل استأنف رحلته الى بلاد الأندلس عابرا مضيق جبل طارق الى غرناطة ، ثم عاد مرة ثانية الى مدينة فاس ، وألقى فيها عصا التنسيار .

وعاوده الحنين مرة أخرى الى السفر ، فغادر وطنه الى السودان ومر بسجلماسة ، وتافزا ، ومالي ، وزاغري ، وتمبكتو وهكار ، وغيرها ، حتى اذا ماروى غليله من التنقل والسفر عاد الى فاس .

وقد قاسى ابن بطوطة في رحلاته كثيرا من الصعاب والمشقات ، وأصيب ببعض الأمراض وفي ذلك يقول في الصفحات الأولى من كتابه : (وتجردنا للسير ، وواصلنا الجد ، وأصابتنى الحمى ، فكنت أشد نفسى بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف » .

وكان ابن بطوطة شديد الحساسية ، وكان شعوره بالوحدة يدعوه الى الانقباض والحزن اذ ترك أهله وعشيرته وهو في شرح الشباب . . ويقول في مقدمة رحلته أنه ترك والديه ، فتحمل بعدهما وصبا ، كما لقي من الفراق نصبا . .

ولما علم ب وفاة والدته في أثناء غيبته في رحلته الأولى تملكه الحزن ، واستبد به الأسى ، وانكفا على قبرها يبكيها . ويقول في كتابه : « فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ، ولم يسلم على أحد لعدم معرفتي بهم ، فوجدت من ذلك في النفس مالم أملك معه سوابق العبرة ، واشتد بكائي فشمع بحالي بعض الحجاج ، فأقبل على بالسلام والايناس » .

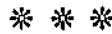
وأملى ابن بطوطة رحلاته على الأديب محمد ابن جزى الكلبي ، فانتهى من كتابتها عام ١٣٥٦ م وأطلق عليها « تحفة النظائر فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار » ، فأملى ما شاهده فى رحلته من الأمصار وما علق بحافظته من نوادر الأخبار ، وما لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخيار ، وأولياؤها الأبرار وأملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ، من كل غريبة أفاد باجتماعها ، وعجوبة أطرف بانتحائها .

ويقول الأديب محمد بن جزى الكلبي فى معرض تسجيله لما أملاه ابن بطوطة : « نقلت معانى كلام الشيخ ، بألفاظ موفية للمقاصد التى قصدتها ، موضحة للمناحى التى اعتمدها ، وربما أوردت لفظه على وضعه ولم أدخل بأصله ولا فرعه . وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار ، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختيار . على أنه سلك فى اسناد صحاحها أقوم المسالك ، وخرج عن عمدة سائرهما بما يشعر بالألفاظ بذلك ، وقيد المشكل من أسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون أنفع فى التصحيح والضبط ، وشرحت ما أمكنتنى شرحه من الأسماء الأعجمية ، لأنها تلتبس بعجمتها على الناس ، ويخطئ فى فك معناها معهود القياس »

وقد كشفت هذه الرحلات عن أسرار كثير من البلاد التى زارها ابن بطوطة ، اذ يعد أول من ذكر شيئا عن استعمال ورق النقد فى الصين ، وعن استخدام الفحم الحجري ، وكان صادقا فى أغلب أوصافه حتى أن المستشرق الكبير « دوزى » أطلق عليه « الرحالة الأمين » .

وأفاد ابن بطوطة علم الجغرافيا بما ذكر من أوصاف للبيئة الطبيعية والتضاريس ، والجغرافية البشرية ، والسكان والعادات والتقاليد ، وما الى ذلك من أمور تهتم الجغرافيين كما تهتم علماء الاجتماع وغيرهم من الدارسين فى أحوال الشعوب .

وقد وصف ابن بطوطة مصر في رحلته وصفا جيلا ، وكان مما قال فيها : « هي أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة ، المتناهية في كثرة العمارة ، المتباهية في الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر . وبها ماشئت من عالم وجاهل وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنسكر ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سبعة مكانها . شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديها لا يبرحها عن منزل السعد . قهرت قاهرها الأمم ، وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم . لها خصوصية النيل التي جل خطرها ، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها . وأرضها مسيرة شهر لمجد السير ، وكريمة التربة ، مؤنسة لدوى الضربة . قال ابن جزى ، وفيها يقول الشاعر لعمر ك ما مصر بمصر انمسا هي الجنة الدنيا لمن يتبصر فأولادها الولدان، والخور عينها وروضتها الفردوس، والنيل كوثر



ومما ذكره عن الحالة الاجتماعية في مصر قوله : « ان بمصر من السقايين على الجمال اثني عشر ألف سقاء ، وان بها ثلاثين ألف مكار ، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين الفا ، للسلطان وللرعية تمر صاعدة الى الصعيد ، ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط ، بأنواع الخيرات والمرافق . وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة ، وهو مكان النزهة والتفرج ، وبه البساتين الكثيرة الحسنة » .

وقال في وصف طبائع المصريين : « وأهل مصر ذور طرب وسرور ولهو . شاهدت بها مرة فرجة ، بسبب برء الملك الناصر من كبر أصاب يده ، فزين كل أهل سوق سوقهم ، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى ، وثياب الحرير ، وبقوا على ذلك أياما ،

ومن أطرف ما وصف به الاسكندرية قوله : « وصلنا الى مدينة الاسكندرية - حرسها الله - وهى الثغر المحروس ، والقطر المانوس ، العجيبة الشأن ، الأصلية البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحصين ، وماثر دنيا ودين . كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها فهى الفريدة تجلى سبناها ، والخريدة تجلى فى حلالها ، الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمشرق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب . فكل يدعى بها اجتلاؤها ، وكل طرفة فانيها انتهازها وقد وصفها الناس فاطنبوا ، وصنفوا فى عجائبها فأغربوا . وحسب المشرف الى ذلك ماسطره أبو عبيد فى كتاب المسالك . »

ووصف أبواب الاسكندرية فقال : ان لها أربعة أبواب : باب « السدرة » واليه يتصل طريق المغرب ، وباب رشيد ، وباب البحر ، والباب الأخضر وهو لايفتح الا يوم الجمعة ويخرج الناس منه الى زيارة القبور .

ومن غرائب الاسكندرية عمود الرخام الهائل الذى ي خارجها المسمى بعمود السوارى ، وهو متوسط فى غابه نخل ، وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا، وهو قطعة واحدة محكمة النحت وقد أقيم على قواعد حجارة مربعة ، أمثال الدكاكين العظيمة ، ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه . »

ومن أطرف ماوصف به مدينة دمياط قوله : « والطير البحرى بهذه المدينة كثير متناهى السمن وبها الألبان الجابوسية التى لامثيل لها فى غذوبة الطعم ، وطيب المذاق . وبها الحوت البورى يحمل منها الى الشام وبلاد الروم ومصر ، وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل تسمى البرزخ ، بها مسجد وزاوية ، ولقيت بها شيخها المعروف بابن قفل ، وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الأخيار ، قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة

وذكرا . ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة القديمة هي التي خربها
الافرنج في عهد الملك الصالح ، وبها زاوية الشيخ جمال الدين
السادى » .

وقال فى وصفه لنيل مصر : « ونيل مصر يفضل أنهار الأرض
عذوبة مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة والمدن والقرى بضفتيه
منتظمة ، ليس فى المعمور مثلها ، ولا يعلم نهر يزدرع عليه على
النيل ، وليس فى الأرض نهر يسمى بحرا غيره قال الله تعالى :
« فإذا خفت فآلقه فى اليم » . فسماه بما هو البحر . ومجرى
النيل من الجنوب الى الشمال ، خلافا لجميع الأنهار . ومن عجائبه
أن ابتداء زيادته فى شدة الحر عند نقص الأنهار وجفوفها ، وابتداء
نقصه حين زيادة الأنهر وفيضها . والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة
الكبار ، وهى : النيل ، والفرات ، والدجلة ، وسيحون ، وجيجون
وتماثلها أنهار خمسة أيضا : نهر السند ويسمى « بنج آب » ونهر
الهند ويسمى « الكنك » ، واليه تحج الهنود وإذا حرقوا أمواتهم
رموا برمادهم فيه ، ويقولون : هو من الجنة ، ونهر الجون بالهند
أيضا ، ونهر أنل بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا ، ونهر
السرو بأرض الخطا (الصين الشمالية) ، وعلى ضفتيه مدينة خان
بالق ومنها ينحدر الى مدينة الخنسا ثم مدنسة الزيتون بأرض
الصين .

« والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ، ولا يعبر
نهر منها الا فى السفن شتاء وصيفا ، وأهل كل بلد لهم خلجان
تخرج من النيل فاذا أمد ترعها فاضت على المزارع » .

وتنقل ابن بطوطة بين مدن الصعيد . ووصف الحياة فيها ،
وكان مما وصف به مدينة « منلوى » قوله : « وبهذه المدينة احدى
عشرة معصرة للسكر ومن عاداتهم أنهم لا يمنعون فقيرا من دخول
معصرة منها ، فيأتى الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها فى القدر التى

يطبخ السكر فيها ، ثم يخرجها وقد امتلأت سكرا فينصرف بها .
وصف ابن بطوطة بعد ذلك مدينة أسيوط ومنها سافر الى
مدينة أحميم ، فمدينة « هو » بساحل النيل وضبطها بضم الهاء .
فمدينة قنا ، فمدينة قوص ، فمدينة الأقصر ، فمدينة أرمنت ،
فمدينة اسنا ، وسافر من اسنا الى ادفو - وبينها وبين اسنا مسيرة
يوم وليلة في صحراء - ثم وصل بعد ذلك الى عيذاب أو عيدات ،
وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ، ويحمل اليها الزرع والتمر
من صعيد مصر ، وأهلها البجاه ، وهم سود الألوان ، وكانوا
يلتحفون ملاحف صفراء ، ويشدون على رؤوسهم عصائب يكون عرض
العصابة منها أصبعا ، وكانوا لا يورثون البنات ، وطعامهم ألبان
الابل ، وقد حالت الحرب القائمة بين البجاة والآتراك من استئناف
رحلته في البحر ، فعاد الى شمال مصر . ثم دخل الشام فوصف
مدنه والمسجد المقدس وقبة الصخرة ، وبعض مشاهدته بالقدس
الشريف ، وفضلاء القدس ، ومدينة صور وطرابلس الشام ، وحلب
ومما جاء ذكره في وصف حلب قوله : « قلعة حلب تسمى الشهباء ،
وبداخلها جبان ، ينبع منهما الماء فلا تخاف الظما . ويطيف بها
سوران ، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء ، وسورها متبداني
الأبراج وقد انتظمت بها العلالي العجيبة المفتحة الطيقان ، وكل برج
منها مسكون ، والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد وبها
مشهد يقصده بعض الناس يقال ان الخليل (عليه السلام) كان
يتعبد به » .

وزار ابن بطوطة مدينة بعلبك . وهي حنة قديمة من أطيب
مدن الشام « تحقق بها البساتين الشريفة ، والجنات المنيفة ،
وتخترق أرضها الأنهار الجارية ، وتضاهي دمشق في خيراتهما
المتناهية ، وبها يصنع الدبس المنسوب اليها ، وهو نوع من الرب
يصنعه من العنب ، ولهم تربة يصفونها فيه فيجمد ، وتكسر القلة
التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة ، وتصنع منها الحلواء ، ويجعل

فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء الملبن ، ويسمونها أيضا بجلد
الفرس . ويصنع في بعلبك الثياب المنسوبة اليها من الأحرام وغيره ،
ويصنع بها أواني الخشب ، وملاعقه التي لانظير لها في البلاد ،
وهم يسمون الصحف بالدسوت ، وربما صنعوا الصحيفة وصنعوا
صحفة أخرى تسع في جوفها أخرى الى أن يلفوا العشر ، يخيل
لرائيها أنها صفحة واحدة ، وكذلك الملاحق يصنعون فيها عشر
واحدة في جوف واحدة . * وهكذا قدم لنا ابن بطوطة صورة واضحة
عن نهضة الصناعة في مدن الشام في هذه الحقبة من التاريخ .

ووصل ابن بطوطة دمنق في يوم الخميس السابع من شهر
رمضان المعظم عام ستة وعشرين وسبعمئة (٧ أغسطس ١٣٢٦م)
ونزل منها بمدرسة المالكية المعروفة « بالشرابية » ودمنق عنده
تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا . وقد أورد في ذلك
قول ابن جبير في رحلته : « أما دمنق فهي جنة المشرق ، ومطلع
نورها المشرق ، وخاتمة بلاد الاسلام التي استقر بناها وعروس المدن
التي اجتليناها . قد تحلت بأزاهير الرياحين ، وتجلت في حلل
سندسية من البساتين وحلت موضع الحسن بالمكان المسكين ،
وتزينت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن أوى المسيح
(عليه السلام) وأمه منها الى ربوة ذات قرار ومعين . . ظل ظليل ،
وماء سلسبيل ، ورياض يحيى النفوس نسيما العليل ، تتبرج
لناظريها بمجئتي صقيل ، وتناديهم : هلموا الى معرس للحسن
ومقيل : وقد سئمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت الى الظماء » .

ووصف ابن بطوطة بعد ذلك جامع دمنق المعروف بجامع
بنى أمية ، وبعض المشاهد والمزارات بها ، وأرباض دمنق ، وجبل
فاسيون في شمال دمنق ، والصالحية في سفحه ، والربوة
والقرى التي تواليها ، والأوقاف في دمنق ، وبعض فضائل أهلها
وعاداتهم ، ومن ذلك قوله في وصف الحياة الاجتماعية في شهر
رمضان المبارك : « ومن فضائل أهل دمنق أنه لا يظفر أحد منهم

فى لىالى رمضان وحده البته ، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء فانه يدعو أصحابه الفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوق صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم أو فى مسجد ، ويأتى كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا » .

وانتقل ركب ابن بطوطة بعد ذلك الى الحجاز فعرج على المدينة ، ووصف مسجد رسول الله وروضته الشريفة ، ووصف المنبر الكريم ، والخطيب والامام بمسجد رسول الله ، وخدامه ، ومؤذنيه ، وبعض المشاهد بخارج المدينة الشريفة ، ووصف الطريق الى مكة ، فمكة نفسها ، والمسجد الحرام ، والحجر الأسود ، والحجر المطاف ، وزمزم والصفا والمروة ، والجبانة المباركة ، والجبال المحيطة بمكة ، وأهل مكة وفضائلهم ، ثم وصف العراق وايران ، فتركيا والقسطنطينية وغيرها من البلاد .

وله فى الهند وجزرها ، وجاوة وسومطرة وغيرها ، أوصاف شتى . من طريق ما ذكره فى الهند قوله : « ولما عبرنا نهر السند المعروف « بينج آب » دخلنا مزرعة قصب ، لأن الطريق يسير فى وسطها ، فخرج الكركدن - وهو حيوان أسود اللون ، ضخيم رأسه كبير متفاوت الضخامة فلذلك يضرب به المثل ، فيقال : الكركدن رأس بلايدن . وهو أصغر من الفيل ، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف ، وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ذراعين . . ولما خرج علينا ، اعترضه بعض الفرسان فى طريقه ، فضرب الفرس الذى كان تحته بقرنه ، فنفذ فى فخذيه وقتله » .

ووصف ابن بطوطة بعض عادات أهل الهند ، مثل احراق النساء ، فقال : « ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا فسألتهم : ما الخبر ؟ فأخبرونى بأن أحد الهنود مات ، وأشعلت النار لحرقه ، وامرأته

تحرقت نفسها معه . ولما احترقا جاء صحابى وأخبرونى أنها عانت الميت حتى احترقت معه ، ثم اتفق بعد ذلك أن كنت فى مدينة قتل منها سبعة من الهنود وكان لثلاثة منهم زوجات فاتفقن على إحراق أنفسهن . وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم امر مرغوب . واجب . ولكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك ، ونسبوا الى الوفاء . ومن لم تحرق نفسها لبست الثياب الخشنة وأقامت عند أهلها يائسة لعدم وفائها ، ولكنها لا تكره على إحراق نفسها » .

ووصف الأعراس بالهند وصفا جميلا رائعا فقال : « لما أمر السلطان بتزويج أخته بالأمير غدا ، عين بشأن الوليمة وتقنانها الملك فتح الله المعروف بشونويس ، وعينى لللازمة الأمير فأتى الملك فتح الله بالصيوانات تظلل بها أفنية القصر ، وضرب فى كل واحد منها قبة ضخمة جدا وأتى بأمير المطربين ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والراقصات ، وكلهن مماليك السلطان وأحضر الطباخين والخبازين ، والشوائين وصانعى الحلوى والشراب والأفاوية . وذبحت الأنعام والطيور ، وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوما ، ويحضر الأمراء والكبار والأعزة ليلا ونهارا فلما كان قبل ليلة الزفاف بليليتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلا الى القصر فزينه بأحسن الفرس وجاء الأمير ، وأجلسه على المرتبة ، وجعل له الحناء فى يديه ورجليه ، وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن ، وانصرفن الى قصر الزفاف ، وأقام هو مع خواص أصحابه . . » .

ووصف سطوة السباع فى الهند فقال : « ان بمدينة برون سباعا كثيرة وذكر له بعض أهلها أن السبع كان يدخل اليها ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من أهلها كثيرا ، وكانوا يعجبون من شأن دخوله ، كما أخبره جار له أن السبع دخل داره ليلا ، واقترب صبيا من فوق السرير . وأخبره غيره أنه كان

مع جماعة فى دار عرس فخرج احدهم لحاجة ، فافترسه أسد ، فخرج أصحابه فى طلبه فوجدوه مطروحا بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لحمه . ومن العجب أن بعض الناس أخبره أن الذى يفعل ذلك بسبع انما هى آدمى من السحرة المعروفين بالجوكية يتصور فى صورة سبع .

ووصف ابن بطوطة جزر « المليبار » وغيرها من جزر المحيط الهندى ، وتنقل بين أنحاء سيلان ، وذكر أن جميع النساء بالجزيرة لهن قلائد من الياقوت الملون ، ويجعلنه فى أيديهن وأرجلهن عوضا من الاسورة والخلخال ، وجوارى السلطان يصنعن منه شسبكة يجعلنها على رؤوسهن ورأى ابن بطوطة على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه ، كل حجر أعظم من بيضة الدجاجة .

وله فى جاوة والصين أوصاف شائعة منها أن دجاج الصين وديوكها ضخمة جدا أضخم من الأوز ، وببيض الدجاج أضخم من بيض الأوز عندنا أما الأوز عندهم فلا ضخامة له وأراد ابن بطوطة أن يأكل دجاجا ، فاشتري واحدة وأراد طبخها فى اناء واحد ، فلم يسع لحمها فجعلها فى اناءين والديك هناك على قدر نعامه وربما انتف ريشه فيبقى كتلة من اللحم حمراء .

وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها فى أسواقهم ، وهم أقل رفاهية وسعة عيش . وترى التاجر الكبير منهم الذى لاتحصى أمواله كثرة عليه جبة قطن خشنة . وجميع أهل الصين يحتفلون فى أوانى الذهب والفضة ، ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه فى المشى ويقولون هو الرجل الثالثة . والحرية عندهم كبير جدا لأن الدودة تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج لكثير من المثونة ، وهو لباس الفقراء والمساكين ، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأتواب من الحرير .

كما ذكر ابن بطوطة حقيقة تاريخية هامة في رحلته ، وهو استخدام أهل الصين لورق النقد فقال : « وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسكبونه قطعاً كما ذكرناه ، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد (ورق) كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان » . وجميع أهل الصين إنما « فحمهم تراب عندهم معقد كأن طفل عندنا » ولونه لون الطفل تأتي الفيلة بالأحمال منه فيقطعونه قطعاً على قدر الفحم عندنا ويشعلون فيه كالفحم ، وهو أشد حرارة من نار الفحم . وإذا صار رماداً عجنوه بالماء وجففوه وطبخوا به ثانية ، ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى . ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصيني ، ويضيفون إليه حجارة سوداء .

وذكر ابن بطوطة أن أهل الصين أعظم الأمم احكاماً للصناعات، وأشدهم اتقاناً فيها . أما التصوير فلا يجاريهم أحد في احكامه ، لا من الروم ولا ممن سواهم . ومن عجيب ما شاهد أنه مداخل قط مدينة من مدنها ، ثم عاد إليها ، إلا ورأى صورته وصور أصحابه منقوشة على الحيطان والورق ، وموضوعة في الأسواق .

ووصف ابن بطوطة رحلته إلى الأندلس بعد ذلك فقال عن خيراتها : « رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرتال بدرهم صغير ، وربانها المارس الياقوتي لانظير له في الدنيا أما التين واللوز فيجلبان منها إلى المشرق والمغرب » .

وتنقل بين ماله أحدى قواعد الأندلس ، وغرناطة ، وغيرها وجاس في أرض مراكش وتونس ثم عاد إلى مدينة فاس .

وأزمع السفر في الرحلة الثالثة إلى السودان وقال : « إن الملح كثير هناك ، وبالمخ يتصارف السودان كما نتصرف بالذهب

والفضة ، ويقطعون قطعاً ويتبايعون به • وقرية تغازى على حقاتها
- يتعامل فيها بالقناطر المنطرة من الثبر •

وضاقت ابن بطوطة في رحلته كثرة الذباب ، والماء الزعاق ،
وقال ان القمل يكثر في بعض المدن حتى يجعل الناس في أعناقهم
خيوطاً فيها الزئبق فيقتله • الا أنه أشاد بغلات السودان من القمح
واللوبيا والأرز والسلع العطرية والبخور وما إلى ذلك • ومن العادات
الحسنة التي ذكرها ابن بطوطة عن أهل السودان أنهم من حفظه
القرآن ، ويدفع الآباء أبناءهم إلى حفظه دفعا ومر ابن بطوطة مرة
بشباب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة ، وفي رحله قيد ثقيل ،
فقال لمن كان معه : ما فعل هذا ؟ أقتل ؟ ففهم عنه الشاب وضحك
وقيل له : انما قيد حتى يحفظ القرآن •

وهكذا أخذ ابن بطوطة يقص علينا رحلته وعلى هذه التورية
مضى يمل مشاهداته في كتاب « تحفة النظار من غرائب الأمصار
وعجائب الأسفار » وقد وجه الأنظار إلى رحلته فمضى الناس بين
مصدق ومكذب ، وشك ابن خلدون في مقدمته في بعض ماورد
ذكره في هذه الرحلات •

على أن رحلة ابن بطوطة ظلت موضع التفاسات كثير من
المستشرقين والباحثين فترة طويلة ، وانتقدوها الفرنجية وعلقوا
عليها ونقلوا بعضها إلى اللغة اللاتينية ونشروه ، ونقلها « لى » إلى
اللغة الانجليزية وطبعت في لندن عام ١٨٢٩ ، ونقلها « ديفر
بمرى » و « سنكونيتى » إلى الفرنسية ، وطبعت في باريس في
عامى ١٨٥٣ و ١٨٥٩ في خمسة مجلدات فيها فهرس أبجدي وترجم
« دى سالن » بعضها إلى الفرنسية عن السودان ، وترجم آخر
ما يختص بأواسط آسيا وترجم ثالث ما يختص بآسيا الصغرى .
وترجمها « مزيك » إلى الألمانية وطبعت عام ١٩١٢ ولها ترجمة

تركية اسمها « تقديم وقائع » ، ولها مختصر كتبه محمد فتح الله
ابن محمود البيلرنى موجود فى جامعة كامبردج . وهناك مختصر
الكتاب مجهول طبع على الحجر عام ١٢٧٨ (١٨٦١ م) وطبع فى
مصر فى مطبعة وادى النيل عام ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) ، وفى المطبعة
الخيرية عام ١٣٢٢ (١٩٠٤ م) .

وتوفى ابن بطوطة بمراكش عام ١٣٧٨ م فى نحو الرابعة
والسبعين .

القزوينى

القزوينى عالم عربى معروف ، ويكنى بأبى عبد الله زكريا بن محمد بن محمود القاضى . وكان اماما ، وعالما وفقهيا ، ولد فى مدينة قزوین عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٤ م) ورحل الى دمشق وهو شاب وتعرف بأبن العربى ، وتولى قضاء واسط والحلة فى زمن المعتصم العباسى . وعندما سقطت بغداد فى يد التتار عام ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) كان القزوينى لا يزال فى هذا المنصب .

ويرجع نسب القزوينى الى الامام المشهور أنس بن مالك ، ولذلك كان ذا منزلة دينية معروفة . وقد ترك القزوينى بعض المؤلفات التى تدل على ثقافته وتفكيره ، منها كتاب « عجائب المخلوقات والحيوانات ، وغرائب الموجودات » ، ويتحدث فى الفلك والجغرافيا الطبيعية عند العرب ويعد من أوفى المراجع فى هذا الميدان ، لولا ما يشوبه من الأوهام التى كانت شائعة على ذلك العهد .

وقسم القزوينى المخلوقات فى هذا الكتاب الى العلويات والسفليات . وكان يقصد بالعلويات ما يتعلق بالسماء وأبراجها ، والكواكب ومداراتها ، والشمس والقمر ، وما يتصل بذلك من علم الفلك ، وقد تحدث فى هذا القسم عن القمر وزيادة ضوئه ونقصانه وخواصه وتأثيراته ، وعن فلك عطارد ، والزهرة ، وعن الشمس وكسوفها وخواصها ، وعن فلك المريخ والمشتري وزحل والكواكب الثابتة ، والدب الأصغر والدب الأكبر ، وخواص القطب

الشمالى ، والبروج الاننى عشر ، وخواص القطب الجنىوبى ،
ومنازل القمر .

والطريف أنه عرف لنا كثيرا من هذه المنازل والكواكب مثل
الثريا ، والدبران ، والذراع ، والطرف والجبهة ، والاكيليل
والصرفة والنعام وسعد السعود ، وبطن الحوت وما اليها .

وقد أكد القزوينى « أن لكل فلك مكانا لا ينتقل عنه ، لكنه
متحرك فيه باجرامه ، لا يقف طرفه عين ، وسرعة حركاتها أسرع من
كل شيء . . »

وأشار الى أن بعض الأفلاك تتحرك من المشرق الى المغرب
كالفلك الأعظم ، ومنها ما يتحرك من المغرب الى المشرق : كفلك
الثواقب ، وأفلاك السيارات . ومنها ما يتحرك بالنسبة اليها كما
أشار القزوينى الى أن خسوف القمر يحدث لتوسط الأرض بينه
وبين الشمس ، فاذا كان القمر فى احدى تقطى الرأس والذنب -
أو قريبا منها عند الاستقبال - تتوسط الأرض بينه وبين الشمس
فيقع فى ظل الأرض ، ويبقى على سواده الأصلى فيرى منخسفا
ولما كانت الشمس أعظم من الأرض فيكون ظل الشمس مخروطا .

وأشار القزوينى فى كتابه كذلك الى المد والجزر وعلاقة ذلك
بالقمر ، وقال أن القمر صار فى أفق من آفاق البحر وأخذ ماؤه فى
المد مقبلا مع القمر ، ولا يزال كذلك الى أن يصير القمر فى وسط
سماء ذلك الموضع ، فاذا صار هناك انتهى المد منتهاه ، وإذا انحط
القمر من وسط سمائه ، بعد ذلك ، جزر الماء ولا يزال كذلك راجعا
الى أن يبلغ القمر مغربه ، فعند ذلك ينتهى الجزر منتهاه .

وتحدث القزوينى بعد ذلك عن الأيام والشهور والسنوات ،
والفصول من ربيع وخريف وصيف وشتاء ، وتعرض للفوارق
بينها .

ومما قاله في وصف الشتاء : « هو وقت نزول الشمس أول
الجدى : فعند ذلك تناهى طول الليل ، وقصر النهار ، ثم أخذ
النهار في الزيادة ، واشتد البرد ، وخشن الهواء ، وتعرى الأشجار
من الأوراق ، وانحجزت الحيوانات في أطراف الأرض وكهوف
الجبال ، من شدة البرد وكثرة الندى ، وأظلم الجو ، وكلج وجه
الزمان ، وهزات البهائم وضعفت قوى الأبدان ، ومنع البرد الناس
عن التصرف »

ومما قاله في الربيع : « نزول الشمس من برج الحمل : فعند
ذلك استوى الليل والنهار في الأقليم واعتدل الزمان ، وطاب
الهواء ، وهب النسيم ، وذابت الثلوج ، وسالت الأودية ، ومدت
الأنهار ، ونبتت العيون ، وارتفعت الرطوبات الى أعلى فسروع
الأشجار ، وتلاأ الزهر ، وأورق الشجر وتفتح النوار ، واخضر
وجه الأرض ، وتكونت الحيوانات ونتجت البهائم ، ودرت الضروع ،
وطاب عيش أهل الزمان ٠٠ »

ومما قاله في الصيف : « هو نزول الشمس أول السرطان ،
فعند ذلك تناهى طول النهار وقصر الليل ، ثم أخذ الليل في
الزيادة ، واشتد الحر ، وسخن الهواء وأدركت الثمار ، وجفت
الحبوب ، وقلت الأنداء وأضاعت الدنيا ، وسمنت البهائم »

ومما قاله في الخريف : « وهو وقت نزول الشمس أول الميزان :
فعند ذلك استواء الليل والنهار مرة أخرى ثم ابتداء الليل بالزيادة
وكما ذكرنا أن الربيع زمان استواء الأشجار وربو النبات ، وظهور
الأزهار ، فبالخريف ذبول النبات ، وتغير الأشجار وسقوط أوراقها
فحينئذ برد الماء ، وهبت الشمال وتغير الزمان ، ونقصت المياه ،
وجفت الأنهار ، وغارت العيون ، ويبست أنواع النباتات ، وماتت
الهموم وانحجزت الحشرات ، وانصرف الطير والوحش لطلب
الدفيئة ، وادخر الناس قوت الشتاء ، ودخلوا البيوت ، ولبسوا

الجلود الغليظة من النياب ، وتغير الهواء ، وصارت الدنيسا
كهلة تولت عنها أيام الشباب . »

وهذا التقسيم الذى سرده القزوينى فهى مادون ذلك القمر من
العناصر والمولدات - وتسمى أيضا أركاننا - وهى أربعة : النار
والهواء والماء والتراب .

فالنار حارة يابسة ، ومكانها الطبيعى تحت الفلك ، وفوق
الهواء . والهواء حار رطب ، ومكانه الطبيعى تحت الهواء وفوق
الأرض .

والأرض يابسة باردة ، ومكانها الطبيعى الوسط ، بيد أن
الهواء المحيط بالكون يصير باردا بسبب برودة الجمد فيصير
ماء . والماء أيضا ينقلب هواء كما يشاهد من السموم فى بعض
المواضع عند شدة الحر ، وكما نرى من كير الحدادين اذا بالغوا فى
نفخه ، فان هواءه يصير بحيث اذا دنا منه شيء احترق .

وقد تحدث القزوينى فى هذا القسم عن كرة الهواء ، وعن
السحاب ، والرياح والأمطار . وذكر أن الرياح مختلفة متباينة ،
ومتنوعة متقاربة . فمنها ما يسوق السحب ، وما ينشرها ، ومنها
ما يجمعها ، ومنها ما يعصرها ، ومنها ما يقلع الأشجار ، ومنها ما يربى
الزرع والشمار ، ومنها ما يجففها .

ورأى القزوينى أن اصول الرياح أربعة :

الشمال : ومهبها من بنات نعش الى مغرب الشمس .

والجنوب : ومهبها من مطلع سهيل الى مشرق الشمس .

والصبا : ومهبها من مطلع بنات نعش الى الشرق .

والدبور : ومهبها من مطلع سهيل الى المغرب .

وريح الشمال باردة لأنها آتية من المنطقة التى لاتسامتها الشمس أصلا ، بل ولا تقترب منها وتكون النلوج والمياه الجامدة بها كثيرة .

وريح الجنوب حارة رطبة لأن هبوبها من ناحية خط الاستواء والحر مفرط هناك لأن الشمس تسامتها فى السنة دفعتين ولاتباعد عنها فتزداد بذلك حرا .

وريح الصبا قريبا من الاعتدال ، وتكون مائلة الى البرودة فى أول النهار ومنها والنسيم السحرى « أو نسيم السحر الذى يهب بالاشجار من الليل فيلتد به الانسان ، ويعطيط النوم عليه .

وريح الدبور تختلف عن الصبا : لأنها تهب والشمس مدبرة عنها فلا تسخنها تسخين الصبا كما تهب فى آخر النهار ، ولا تهب بالليل لأن الشمس تبلغ موضع مهبها .

وقد أشار القزوينى الى تداخل الهواء ، وهبوب الريح ، اشارات كثيرة تدل على فهمه وادراكه . كما عرف « الزوبعة » بأنها الريح التى تدور على نفسها شبه منارة . وأكثر تولدها من رياح ترجع من الطبقة الباردة ، فتصادف سحباً تذروه الرياح المختلفة ، فيحدث من دوران الغيم تدوير فى الريح فينزل على تلك الهيئة .

أما السحاب فقد أشار الى تكوينه وتحركه أمام الريح ، مما يسبب نزول الأمطار ، وقال : « ان الشمس اذا أشرفت على الماء والارض حللت من الماء أجزاء لطيفة مائية تسمى بخار ، كما حللت من الارض أجزاء لطيفة أرضية تسمى دخاناً فاذا ارتفع البخار ، والدخان فى الهواء ، ودفعهما الهواء الى الجهات ومن فوقهما برد الزمهرير ، ومن أسفلهما مادة البخار . . تداخلت أجزاء بعضهما فى بعض ، وتكون السحاب ثم أن السحاب كلما ارتفع

انضمت أجزاء البخار بعضها الى بعض حتى يصير ماكان منها
دخانا . . وماكان بخارا . . ماء »

وبعد أن انتهى القزويني من حديثه عن السحب والرياح
والرعد والبرق - والهاله وقوس قزح تحدث عن صيرورة البحر ،
وعن أنواعها فتكلم عن البحر المحيط ، والبحر الأبيض ، وبحر
الصين ، وجزائر بحر الصين وحيواناته العجيبة . وبحر الهند
وجزره المختلفة وحيواناته المتعددة ، وبحر القلزم ، وبحر الخزر ،
وبحر المغرب ، وغير ذلك من البحار .

ثم انتقل عقب ذلك الى الكرة الأرضية فتحدث عن اختلاف
آراء القدماء فيها ، وأقاليمها وأرباعها وصيرورة السهل جبلا ،
وفوائد الجبال ، وتولد الأنهار ، وخواصها ، وانفجار العيون والآبار
ثم النظر في الكائنات ، والبحث في « الفلزات » والأحجار والاجسام
الدهنية .

وأشار القزويني الى حكمة وجود الجبال والأودية والأنهار في
خلق « السفليات » : فالجبال الشامخات كأوتار لها ، يمنعونها
من أن تميد والبحار العظيمة خلجات من البحر الأعظم المحيط
بجميع الأرض حتى أن المكشوف من البوادي والجبال - بالإضافة
الى الماء - كجزيرة صغيرة في بحر عظيم ، وبقيّة الأرض مستورة
بالماء .

وذكر القزويني جملة من الأنهار ومن بينها نهر النيل الذي قال
عنه : « ليس في الدنيا نهر يصب من الجنوب الى الشمال ، ويمد
في شدة الحر حين تنقص الأنهار كلها ، ويزيد بترتيب وينقص
بترتيب . . غيره »

وقد حدد القزويني طول النيل بمسيرة شهر في بلاد الاسلام،
وشهرين في بلاد النوبة ، وأربعة أشهر في الخراب - ويقصد
بذلك الصحراء - الى أن يخرج ببلاد القمر خلف خط الاستواء .

ومن الأنهار التي تعرض القزويني لوصفها كذلك : نهسر
أذربيجان ، ونهر جيحون ، ونهر دجلة ، ونهر الفرات ، ونهر
أصفهان ، وغيرها . كما تعرض للعيون والآبار : كعين نهاوند ،
وعين رأس الناعور بشرق الموصل ، وعين غرناطة في الأندلس ،
وعين هرماس بالقرب من نصيبين وغيرها ، وبئر بابل ، وبئر أبي
كنود بعلربلس ، وبئر برهوت بحضرموت وبئر قنصورة بأرض
الهند ، وغيرها .

ويدل أسلوبه في العرض على ثقافته الواسعة ، وأدراكه
الشامل . . لولا أنه أحيانا يخلط الحقائق بالأوهام ، والوقائع
بالخيال ، ولعل هذا يرجع الى أنه سجل أوصافه لمواضع لم تطأها
قدماء بل سمع عنها سمعا .

ومن أطرف الأشياء التي تناولها القزويني في كتابه « عجائب
المخلوقات » الأحجار والفلزات وقد ذكر أن الذهب الأسود لا يتولد
الا في البراري الرملية والجبال والأحجار المختلطة بالتراب ، والندى
والكبريت لا يتكون الا في الأراضي الندية ، والتراب النسيدي
والرطوبات الدهنية ، والأملاح لا تنعقد الا في الأرض السبخة
والأسفيداج لا ينعقد الا في الأرض الرملية المختلط ترابها
بالجص . أما « التسب » فلا يتكون الا في التراب الغصص الجاف .

والطريف أن القزويني تنبه الى وجود الفلزات وخصص من
كتابه فصلا للكبريت عنها ، وقال أنها الأجساد السبعة التي تتولد
من اختلاط الزئبق والكبريت .

فان كان الزئبق والكبريت صافيين ، واختلطا اختلاطا تاما ،
وشرب الكبريت رطوبة الزئبق كما تشرب الأرض نداوة الماء . .
انعقد مع طول الزمن الذهب الابريز . وان كان الزئبق والكبريت
صافيين ، وانطبخا انطباخا تاما ، وكان الكبريت مع ذلك أبيض

.. تولدت الفضة . وان أصابه قبل النضج برد عاقد ، تولد
« الخارصين » .

وان كان الزئبق والكبريت رديئين ، وكان الزئبق متحللا
أرضيا ، والكبريت رديئا .. تولد الحديد . وان كان الزئبق
والكبريت رديئين ، وكانا مع رداتهما ضعيفى التركيب .. تولد
الأسرب

وقد ذكر القزوينى أن الفلزات سبعة فقط فى حين أنها أكثر
من ذلك . وعلى أية حال فان الجهود التى قام بها القزوينى للتفريق
بين الفلزات وغير الفلزات جهود تشهد باجتهاده الشخصى ،
وقراءاته المتصلة فى هذا الميدان ، كما أن محاولة تفريقه بين
الأحجار المختلفة والمعادن فى الأرض وتبيان مواضعها تشهد على
محاولات جيولوجية فريدة كان لها أكبر الأثر فى نهضة العلوم عند
العرب .

والعجيب أن القزوينى تناول « النفط » فى كتابه وقال انه
يطفو على الماء ، ومنه أسود ومنه أبيض وقد يصاعد الأسود بالقرع
والأنبق فيصير أبيض ينفع من أوجاع المفاصل والفالج وبياض
العين والماء النازل فيها ، كما وصف شرب النفط فى بعض الأحوال
المرضية مثل المغص والديدان المعوية ، وأخرج الأجنة الموتى من
بطون الحوامل ، وقال أنه ربما يتوقد من غير نار بل بمجرد
تحريكه .

وقد تنبه القزوينى فى كتبه الى العلاقات الموجودة بين العلويات
والسفليات ، فأشار مثلا الى العلاقة بين ضوء القمر والنبات ، وقال
أن الفواكه اذا وقع عليها ضوء القمر أعطاها لونا عجيبا من حمرة
أو صفرة فالتى يقع عليها الضوء فى النصف الأول من الشهر
أحسن لونا مما يقع عليها فى النصف الأخير ومنها أن نباتات

الفتسب والكتنان اذا وقع عليه ضوء القمر في النصف الأول يكون
أكبر تفتعا مما لو وقع عليه آخر الشهر .

وهذه الاشارات تحتاج الى بحث طويل من العلماء الزراعيين ،
وزهب بعضهم الى صحتها . وهى على أية حال تشهد على ملكة
الاستقراء التى حاول القزوينى أن يستتخدمها فى آرائه ، فعالفه
التوفيق حيناً ، وخانه حيناً آخر .

بيد أن حديثه عن النبات والحيوان يشهد على محاولته لدراسة
علم التاريخ الطبيعى ، والأحياء فهو يتكلم عن الشجر بأنواعه ،
وينعرض لأشجار الأبنوس والآس والبلوط والتوت والتين والجميز
والتفاح وينقل بين أشجار السرور والصنوبر والزيتون والسفرجل
والفلفل والفسق والموز والنانج وغيرها

كما نجده يتحدث كذلك عن الجزر الخردل والخيار والتمر
والنوم والعنبس والحمض والبادنجان ويتعرض للفجل والكرات
والكرفس والكزبرة وغيرها ، ويتحدث عن النرجس والنسرین
والورد والورس والناددين وما إليها : حديث العالم الباحث ،
لاحديث الشاعر ولا الأديب .

وإذا انتهى من ذلك تعرض للحديث عن الإنسان وفرق بينه
وبين الحيوان ، وشرح أعضائه عضواً عضواً ، فتكلم عن الغضروف
والعصب والرباط واللحم والشحم والشرابين والأوردة والجلد
وغیر ذلك من الأعضاء المتشابهة ، ثم تعرض عقب ذلك للأعضاء
المركبة ، ومنها الرأس والعين والأذان والأنف والشفة والفم
واللسان والأسنان ، والشعر والعنق الصدر ، واليد والظفر ،
والبطن والظهر والجنب والرجل ، ثم توغل فى حديثه الى الأعضاء
الباطنية ، فوصف الدماغ والرئة والقلب والكبد والمرارة والطحال
والمعدة والكلية والمثانة .

وحاول أن يتوغل في أغوار النفس الانسانية فتكلم عن القوى الباطنة والقوة المصورة ، والقوى المدركة والقوى الغضبية ، والقوى العقلية ، وتفاوتت الناس في العقل . ولما انتهى القزويني من هذا الحديث - أو من هذه المحاولات العظيمة في ميادين التاريخ الطبيعى ، والطب والتشريح ، وعلم النفس تناول بالوصف الحيوانات التى رآها أو سمع عنها كالسباع وابن آوى ، وابن عرس ، والذئب ، والثعلب والخنزير والدب ، والسنور ، والسنجاب ، والضبع ، والفيل ، والقرد ، والكلب ، والنمر ، والكركن وغيرهما ، ثم تعرض للطير فتكلم عن الباشق ، وابن براقش ، والبازى ، والأوز ، والبوم ، والبلبل ، والحمام والديك ، والدجاج والشاهين ، والصقر ، والعصفور ، والعقاب والقمصرى والكركى ، والكروان ، والهدهد والوطواط .

ثم تعرض القزويني بعد ذلك للهوام والحشرات فتكلم عن الأرضة ، والأفعى ، والتعبان ، والجراد وديك الجن ، والذباب ، والزنبور ، والسلحفاة ، والصرصور ، والضب ، والعنكبوت ، والغار ، والقمل ، والنحل ، والنمل وغير ذلك . ومما قاله فى وصف الفيل : « حيوان طريف بهى نبيل ، من أعظم الحيوانات . وربما كان فى فمها ثلثمائة سن وهو أطرف وألطف من كل حيوان . . . خفيف الجسم ، رشيق ، صنع الله فى خلقته عجائب قدرته ، وهو أن رقبته لما كانت قصيرة خلق لها خرطومًا طويلًا يفـوم مقامها يرفع العلف والماء الى فمه بها ، وتدور على جميع بدنه كما تدور يد الانسان ويضرب بها ، وله أذنان كبيرتان كل واحدة على شكل يدين متحركتين وانما يدفع بها الذباب والبق عن فمه ، فان فمه مضوح دائما فلو دخل شيء من البق أو الذباب الى فمه لهلك .

ومما قاله فى وصف الزرافة : « رأسها كـرأس الابل وقرنها كقرن البقر ، وجدها كالنمر ، وقوائمها كالبعير ، وأظلافها كالبقرة

طوبلة اليدين ، قصيرة الرجلين ، وجلدها بالبفر أقرب وأنسبه
وذنبها كذنب الظباء * »

ومما قاله فى وصف البوم : « طائر معروف لا يبرز بالنهار
لضعف بصره ويحب الوحدة ، وتتشام الناس به ، والحيات
والافاعي تهرب من صوته ، وتصطاد السنابير الضعاف ، ومعادى
الغراب * وهو ذليل بالنهار أما بالليل فلا يقدر عليه شئ من
الطيور » *

ومما قاله فى وصف الشاهين : « طير من جوارح الطير ، عدو
الحمام : اذا رآه الحمام يعثره ما يعثرى الشاة من
الذئب ، والغار من الهرة * والحمام أسرع طيرانا منه الا أنه اذا
رآه يضعف عن الطيران ، واذا رآته السلحفاة تثقنع وتعطيه
طهرها ، وقد يحملها الشاهين ويصعد بها نحو السماء ويرميها
على حجر صلد لتكسر فيأكلها » *

ومن العجيب أن القزوينى فى كتابه أشار الى طرق الطهى مما
نطلق عليه اليوم علم « التدبير المنزل » فقال : « ان الدجاجة
البخشاء تطبخ بعشر بصلات ، وكف سمسم مقشر حتى تنهري ،
وبؤكل لحمها ويحتسى مرقها ، فإنه يزيد فى الباه ، ويقوى الشهوة ،
بيد أنه لا يلبث أن يحذر الناس من الافراط فى تناول الدجاج لأن
الافراط فيه يورث البواسير والنقرس » *

ولا يغرب عن الذهن أن هذه المعلومات قاصرة ويخالطها كثير
من الباطل بيد أنها كانت فى عصره فتحا جديدا فى هذه الألوان
من المعرفة الانسانية .

مال فى وصف دود العز ، وهى من الحشرات التى تناولها
القزوينى فى هذا القسم : دوية اذا شجعت من الرعى ، طلبت
مواضعها من الأسجار ، والنسوك ، ومدت لعابها خيوطا رقاقا ،

ونسجت على نفسها كنا مثل الكيس ليكون حرزا لها من الحر والبرد والرياح والأمطار .

وقال فى وصف العقرب : « وأخبث الهوام العقارب ، يلدغ كل شئ يلقاه . عينها على بطنها ، ولدها يخرج من ظهرها ، فاذا ولدت ماتت ، واذا لسعت هربت ولم تقف . والعقرب اذا خرجت من بيتها أول الليل ولها نشاط . . أى شئ لقيته ضربته » .

والملاحظ أن القزوينى استمد اسم كتابه « عجائب المخلوقات » من هذه المخلوقات جميعا ، لأنه اعتبر كل واحد منها عجيبة من العجائب ، وغريبة من الغرائب ، وكل مخلوق يترك فى النفس حيرة عظيمة ويخلف عجباً شديداً

وقد ضرب الأمثلة فى مقدمة كتابه بخلية النحل التى يعجب منها كل من يشاهدها ، اذ كيف يقوم هذا « الحيوان الضعيف يعمل هذه المسدسات المتساوية والأضلاع التى يعجز عن مثلها المهندس الحاذق مع الفرجار والمسطرة على حد تعبيره ؟ ومن أين لها هذا الشمع الذى اتخذت منه بيوتها المتساوية التى لا يخالف بعضها بعضاً كأنها أفرغت فى قالب واحد ؟ ومن أين لها هذا العسل الذى أودعته فيها ذخيرة للتستاء يأتينا ، وأنها تفقد فيه الغذاء ؟ وكيف اهتدت الى تغطية خزانة العسل بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطة بالعسل من جميع جوانبه فلا يجففه الهواء ولا يصيبه الفأر .

وهذا العجب لا يدرك القزوينى من المخلوقات السفلى أو السفليات فحسب ، انما يبدأ من المخلوقات العلوية أو العلويات أيضاً ، فالقمر يكتسب النور من الشمس لينوب عنها بالليل ، ثم هو يمتلئ ويكون معاقا ، ويدرك الشمس الكسوف كما يدرك القمر الخسوف . كما أن عجائب السموات لا يستطيع الانسان أن يحصى عشر عشرها . فهذا هو السبب الذى من أجله أطلق القزوينى على

كتابه « عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجودات » وهو أهم كتاب ألفه القزوينى ، وبه يعرف عند العلماء والمؤرخين .

وقد طبع هذا الكتاب على هامش كتاب « حياة الحيوان الكبرى » للأستاذ العلامة والقدة الفهامة والشيخ كمال الدين الدميرى « عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩٣ م) وطبعة أخرى عام ١٣٢١ هـ ١٩٠٣ م وطبع طبعة نالتة عام ١٩٥٤ م وترجم الى الفارسية وأضيفت اليه . بعض الصور الملونة ، وطبع فى لکناؤ عام ١٢٨٣ هـ ، كما ترجم الى الالمانية وطبع فى مدينة ليبزج عام ١٨٦٨ وترجم بعضه الى الفرنسية وطبع فى باريس عام ١٨٠٥ ، وترجم كذلك الى اللغة التركية ونشرها . وقد اهتم به المستشرق الكبير « وستنفلده » وكتب له مقدمة نشرت مع الكتاب عام ١٨٤٨ م . واختصر الكتاب « الباكوى » المتوفى عام ٨٠٦ هـ ١٤٠٤ م وأطلق عليه « الآثار عن عجائب المخلوقات » ومنه نسخة خطية فى باريس ونسخة بدار الكتب المصرية .

وللقزوينى كتاب آخر يسمى « آثار البلاد وأخبار العباد » وطبع فى جوتنجن عام ١٨٠٥ وعلى هامش كتاب « تاريخ الخلفاء » عام ١٣٠٥ هـ وهو يتناول علم الفلك وبعض الأحداث التاريخية وبعض المعلومات التى وردت فى كتابه « عجائب المخلوقات »

وذكر الأب لويس سيخو أنه وقف فى حلب على كتاب فى تاريخ مصر وخططها يشبه الى حد بعيد خطط المقرئى ، وينسب للقزوينى ، وفيه وصف شائق للقاهرة . وقد نقل الأب لويس سيخو بعض فصول الكتاب فى مجلة المشرق عام ١٩٠٥ . وجاء فى هذا الكتاب أن أحد شاهدى العيان كان بمصر فى العشر الأولى من المحرم سنة احدى وستين وأربعمائة ، فرأى خمسة وعشرين حملا موقرة كتبها محمولة الى الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المقرئ فسأل عنها فعرف أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير

ابن الموفق فى الدين ، وأن حصه الوزير أبى الفرج منها قومت عليه من جارى مماليكه وغلما نه بخمسة آلاف دينار * ونقل عن ابن أبى طى بعدما ذكر استيلاء صلاح الدين على قصر الخليفة « ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا ويقال انه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر ، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائة نسخة من كتاب الطبرانى الى غير ذلك . ويقال أنها كانت تحتوى على ألف وستمائة ألف كتاب ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة * أشياء كثيرة » .

ومما يؤكد ذلك أن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على لما أنسا المدرسه الفاضلية بالقاهرة جعل فيها من كتب القصر مائة ألف مجلد . وباع ابن صور جملة منها فلو كانت كلها مائة ألف لمسا فضل عند القاضى منها شيء كثير ، وذكر ابن أبى واصل أن خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد .

وهذه الروايات جميعا تعتبر غرة بيضاء فى جبين مصر ، اذ حرصت على اقتناء الكتب المفيدة والمراجع المختلفة فى الفقه ، وسائر المذاهب ، والنحو واللغة ، وكتب الحديث ، والتواريخ ، وسمير الملوك والروحانيات ، والكيمياء ، والنسخ المختلفة من المصاحف وما اليها من نفائس الكتب والمخطوطات .

وتوفى القزوينى عام ٦٨٢ هـ ١٢٨٣ م

الإدريسي

عالم جغرافي كبير ، ورحالة وجواب آفاق ، تعلم في مدينة قرطبة في الأندلس ، وأخذ عن علمائها وأغرم بالجغرافيا والطب والنجوم ، وكان الى جانب ذلك أديبا ذواقة للأدب ، يقرض الشعر وينظمه في شتى المناسبات . زار بلدانا مختلفة ، وترك لنا وصفا شائعا لعالمها ومدنها . وطاف في القسطنطينية وآسيا الصغرى ومصر ومراكش والأندلس ، وعبر البحر الى انجلترا بعد أن زار فرنسا ثم عاد الى جزيرة صقلية حيث قابله أهلها بنرحاب عظيم ، وأغدى عليه ملكها « روجر الثاني » (١١٠١-١١٥٤ م) المشهور في الكتب العربية باسم « رجار » هباته وعطاياه ، وأنزله في أحسن منزل ، وأخذ يستمتع بقصصه وطرائفه وأوصافه للبلدان التي زارها . واصطنع الإدريسي للملك « روجر » - بناء على طلبه - كرة أرضية من الفضة ، وكتب عليها بأحرف عربية كل مكان يعرفه من البلدان المختلفة ومما يدعو الى الأسف أن هذه الكرة قد فقدت بعد ذلك ، ولولا فقدتها لزاد فهم المؤرخين لقيمة المعارف الجغرافية في القرن الثاني عشر الميلادي زيادة عظيمة .

وقد سجل الإدريسي مشاهدته في كتاب أطلق عليه « نزهة المستاق في أخبار الآفاق » وقيل « في اختراق الآفاق » .

وكان هذا الكتاب عوناً للجغرافيين في توسيع معارفهم العامة ، كما كان عوناً للمستكشفين البرتغاليين في القرن الخامس عشر على ارتياد الأماكن المجهولة .

وقد قسم الادريسي الأرض الى سبعة أقاليم أو مناطق ، ثم قسم كلا من هذه الأقاليم أو المناطق الى أحد عشر قطرا ، وأورد أوصاف البلاد والممالك ، وقاس أبعادها بالميل والفرسخ غير أنه لم يفكر في خطوط الطول والعرض .

وكان مما وصف به نهر النيل في بلاد النوبة ميل واحسد وعرضه في قبالة مصر ثلث ميل . وفي البطيحات الصغار وما بعدها من النيل الحيوان المسمى بالتمساح ، وفيها أيضا الحوت المسمى بالخنزير وهو ذو خرطوم ، أكبر من الجاموس ، ويخرج الى الجهات المجاورة الى النيل فيأكل بها الزرع ويرجع الى النيل . وفي النيل المذكور سمكة مدورة حمراء الذنب يقال لها « اللاش » لا تظهر به الا نادرة وهي كتيرة اللحم طيبة الطعم . وفيه أيضا سمك يسمى « البرميس » وهو حوت أبيض مدور أحمر الذنب ويقال أنه ملك السمك . وهو طيب الطعم لذيذ ، يؤكل طريا ومملوحا .

وهكذا يعطى الادريسي يصف أنواع السمك الموجودة في هذه المنطقة كأنما هو خبير بأنواعها وأجناسها . وليس من شك في أن هذا الوصف كان له أبعد الأثر في تقويم الثروة السمكية الموجودة في هذه المناطق . كما كان للادريسي فضل كبير في توضيح قيمة الثروة الاقتصادية الكائنة هناك .

ويقول عن الفواكه في السودان : « وليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة الا ما يجلب اليها من الثمر من بلاد سلجماسه أو بلاد الزاب . والنيل يجري في هذه الأرض من الشرق الى الغرب ، وينبت على ضفتيه القصب الشركسي ، وشجر الأبنوس ، والشمشار ، وبها ثقيل وتسكن مواشيهم ، واليهما يميلون ويستظلون عند شدة الحر وحمية القيظ . وفي غياضه الأسد والزراف والغزلان والضبعان ، والأفيال ، والأرانب ، والقنافذ .

وهكذا يصور لنا الادريسي في هذه الفقرة النروة الحيوانية في هذه المنطقة من الأرض . صحيح أن كثيرا من الأراضي البور استصلحت في السودان ، وصحيح أن الزراعة زحفت الى كثير من المناطق والى مساحات واسعة من الأرض الخلاء ، وصحيح أن أنواعا مختلفة من الفواكه زرعت في هذه المناطق ، وجلبت بذورها من الخارج ، أو امتدت الى أماكن لم تكن ممتدة اليها من قبل ، وصحيح أن بعض الحيوانات فرت من أماكن الغابات نتيجة لاجتثاثها . . ولكن وصف الادريسي — مع هذا كله يصور الحياة كما كانت في القرن الثاني عشر الميلادي قبل أن تمتد يد الإصلاح الى السودان .

وقال الادريسي في وصف مدينة الفيوم : « والفيوم مدينة كبيرة ذات بساتين وأشجار وفواكه وغللات . ولها جانبان على وادي اللاهون وهو فيما يقال أن يوسف عليه السلام اتخذ له مجريين للماء في وقت الفيض ليديم لهم الماء فيهما ، وقومهما بالحجارة المنضدة . ومدينة الفيوم في ذاتها مدينة طيبة كثيرة الفواكه والغللات ، وأكثر غلاتها الأرز ، وهو الأكثر في سائر حبوبها وهوؤها وبىء غير موافق ، منكر لمن دخلها من الطارئين »

ولست أدري ما الذى دفع الادريسي ليصف هواء الفيوم بأنه وبىء ، مع أن هواءها جميل ولعل ذلك يرجع الى ماوجده في الفترة التي نزل فيها الادريسي مدينة الفيوم . . فلعل الريح العاصفة الآتية من الصحراء هي التي استقبلته عند وصوله اليها ، فوصف هواءها بأنه وبىء . . وقل مثل ذلك بالقياس الى وصفه للأحوال المناخية في بعض مدن السودان ، فهو يقول أن السماء لا تمطر في بعض المدن . . على حين أن المطر غزير في هذه المناطق . وهو يقول أن أهلها ينتظرون فيض النيل وليس لهم من الله رحمة ولا غياث الا فيض النيل . . في الوقت الذي اشتهرت به هذه المناطق بغزارة المطر ، وهطول الغيث .

كما أنه غمط بعض أهالى أفريقيا حقهم ، وصورهم فى صورة مزرية . . « فالمرأة لا ترى الا ويتبعها أربعة أولاد أو خمسة ، وهم فى ذاتهم كالبهائم لا يبالون بشئ من أمور الدنيا الا بما كان من لقمة أو . . »

ونلمح فى كتاب الادريسي ملامح واضحة للجغرافيا البشرية وعادات الأهالى ، وتقاليدهم الاجتماعية وملابسهم وأزيائهم . . فيقول فى وصف أهل المغرب الأقصى : « أهلها يلبسون المقندرات من الصوف ، ويربطون على رؤوسهم كرازى الصوف ويتلثمون بفواضلها ، ويسترون أفواههم - وهى عادة من عوائدهم توارثتها الأبناء على الآباء ، ولم ينتقلوا عنها ، ولم يتحولوا منها » .

وقد وصف الادريسي فى رحلاته شتى مدن الأندلس ، وألقى أضواء على ماعبره من جزر أو طاف به من مدن ، وعندما وصل الى قرطاجنة ألفها مدينة قديمة « أزلية » لها مرسى ترسو عنده المراكب الصغيرة والكبيرة ، ووجدها كثيرة الخصب والرخاء ، ولها إقليم يسمى « الفندون » قلما يوجد مثله فى الخصوبة والجودة . ويحكى أن الزرع فيه يثمر بسقى مطرة واحدة ، واليه المنتهى فى الجودة . ووصف الادريسي الأنهار التى تشق أرض الأندلس وصفا سائقا ، كما صور الحياة فى وديان هذه الأنهار والأسواق الموجودة فيها ، والمعادن الدفينة فى أرضها ، وألوان المتاجر التى تعبر البحر الى شتى الأقطار والأمصار ، والستور والنياب وأنواع الحرير وصنوف النحاس والحديد وغيرها مما تحمله السفن من الموانئ المختلفة .

كما وصف الادريسي القصور الموجودة فى الأندلس ، والقلاع والحصون ، وعرج على ذكر تواريخها ، ومنها تلك الحصون التى كان يسكنها البربر فى عهد الأمويين .

ومن طريف ما وصف به الادريسي أهل برقة أن نياهم حمراء دائما ، وبذلك يعرف أهلها في سائر البلاد المحيطة بها والصادر عنها والوارد اليها ومن الطريف كذلك قوله أن أرضها تمتاز بزراعة القطن الذي لا يجانسه صنف من أصناف القطن ، كما أن تربتها ينتفع بها في علاج بعض الأمراض . . اذ تعجن مع الزيت وتستخدم في علاج الجرب والحكة !

قد يكون في هذا القول بعض الأغاليط ولذلك كان لابد لنا عندما نقرأ كتب الادريسي أن نتحفظ فيما رواه من قصص وحكايات وأوصاف .

وظلت هذه السمة تتمثل في شتى رحلاته ومنها رحلته الى أوربا التي صورها في كتابه هذا « نزهة المشنق في أخبار الآفاق » الا أنه وفق أحيانا في وصف البيئة الجغرافية للبلاد التي زارها فقال مثلا في وصف مدينة « جنوة » في إيطاليا :

« مدينة قديمة أزلية البناء ، حسنة الجنبات والأفناء ، بنيانها شاهق السمو . وهي وافر النمر ، كثيرة المزارع والقرى والعمارات . وهي على قرب نهر صغير ، وأهلها تجار أملاء مياسبر ، يسافرون برا وبحرا ، ويقتحمون سهلا ووعرا ، ولهم أسطول مخيف ، ولهم معرفة بالحيل الحربية ، والآلات السلطانية ولهم بين الروم عزة نفس » .

وقال في وصف روما : « ومدينة رومة مدينة عظيمة الدور ، يذكر أن محيطها تسعة أميال ، ولها سوران من حجارة ، وعرض السور الداخلي اثنا عشر ذراعا ، وسمكه اثنان وسبعون ذراعا ، وعرض السور الخارج ثمانية أذرع ، وسمكه اثنان وأربعون ذراعا ، وفيما بين السورين نهر مغطى ببلاطات نحاس طول البلاطة منها ستة وأربعون ذراعا . وسوقها معترض ما بين الباب الشرقي الى الباب الغربي . وهناك اسطوانات حجر في نهاية من الغلط ، طول

كل عمود منها تلاتون ذراعا . ومما يلى جانبى العمود الأوسط منها عمودان من نحاس أصفر رومى ، وقصبة العمود وقاعدته ورأسه مفرغ فيه ، وعليها حوانيت تجار ، وفى مقدم هذه الاسطوانات والحوانيت نهر ينشقها من المشرق الى المغرب ، قاعة كلها مفروش ببلاط النحاس (يقصد صفائح النحاس) ، ولا يستقر به شئ يرسى فيه . وبهذا النهر تؤرخ الروم فنقول : من تاريخ عام الصفر (هو نهر التير على بعد ١٥ ميلا من البحر) والمراكب تدخل الى مدينة رومة على هذا النهر بأوساقها فتأتى المراكب بما فيها حتى تقف على حوانيت التجار . وفى داخل المدينة كنيسة عظيمة بنيت على اسم بطرس وبولس الحواريين . . وهما فيها فى قبرين » .

ويأخذ الادريسي بعد ذلك فى وصف هذه الكنيسة وصفا دقيقا : « قطولها ثلاثمائة ذراع وعرضها مائتا ذراع ، وارتفاع سمكها مائة ذراع وأركانها من نحاس مفرغ ، وسمكها كذلك مغطى بالنحاس الأصفر » .

ومما اعتبره موضحا لشخصية روما وجود ألف ومائتى كنيسة بها ، وأسواقها وشوارعها مفروشة بالرخام الأبيض والأزرق ، وفيها ألف حمام ، وفيها كنيسة جلييلة البناء بنيت على صصفة كنيسة بيت المقدس طولاً وعرضا ، وفيها مذبح تقرب عليه القربان طولُه عشرة أذرع ، وظهره كله مرصع بالزمرد الأخضر ، ويحمل هذا المذبح اثنا عشر تمثالا من ذهب إبريز ، طول التمثال منها ذراعان ونصف ذراع ، وأعينها يواقيت حمر ، ولهذه الكنيسة أبواب مصفحة بالذهب والابريز ، غير مالها من الأبواب الخارجة المصفحة بصفائح النحاس وأبواب الخشب المنقوش .

ومما استرعى نظر الادريسي فى روما وجود قصر الملك المسمى « البابا » (البابا) وليس هناك قصر يعلى عليه ، والملوك يقيمونه مقام البارى جل وعز ، يحكم بالحق ، ويتحرى المظالم ، ويرفق

بالضعفاء والمساكين ، وينفى الضيم عن المنهزمين ، وحكمه نافذ
ماض على جميع ملوك الروم ، ولا يقدر أحد منهم أن يرد عليه .

وهكذا استطاع الادريسي أن يدرك مدى تأثير الدين في
الرعة في أوروبا ، كما استطاع أن يدرك مدى نفوذ البابا في
هذا العصر ، ومدى خشية الملوك والأباطرة من سلطانه ، وسعيهم
الى خطب وده ، وتملقه .

ومضى الادريسي بعد ذلك يصف مدن إيطاليا بلدا بلدا ، ثم
مضى يصف مدن فرنسا وإنجلترا بيد أن الشيء الملاحظ في كتابات
الادريسي كثرة أسماء المدن التي تغيرت في الجغرافيا الحديثة
حتى أن القارئ المتخصص يحتاج الى كثير من الجهد والعناء في
المعرف على البلاد التي كانت تحمل الأسماء . . فما بالك بالقارئ
العادي !

وضم كتاب الادريسي « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » بعض
المعلومات الجغرافية المتصلة بالجغرافية الفلكية ، كقوله : « . . ان
الأرض مدورة كتدوير الكرة ، والماء لاصق بها وراكذ عليها ركودا
طبيعيا لا يفارقها ، والأرض والماء مستقران في جوف الفلك كالمحبة
في جوف البيضة ووضعها وضع متوسط ، والنسيم محيط بهما
من جميع جهاتهما ، وهو جاذب لهما الى جهة الفلك أو دافع لهما . .
والله أعلم بحقيقة ذلك .

« والأرض مستقرة في جوف الفلك — وذلك لشدة سرعة
حركة الفلك — وجميع المخلوقات على ظهرها ، والنسيم جاذب لما
في أبدانهم من الخفة ، والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل
بمنزلة حجر المغنطيس الذي يجذب الحديد اليه » .

كتب الادريسي هذا في القرن الثاني عشر الميلادي . ولعل خير
ما يلقي الضوء على فضله أن نثبت تاريخه مع تواريخ من سبقهم
في ميادينهم من علماء الغرب .

الادريسي : ولد عام ١٠٩٩ ، ومات عام ١١٨٠

كبر نيق : ولد عام ١٤٧٣ ، ومات عام ١٥٤٣

كيلر : ولد عام ١٥٧١ ، ومات عام ١٦٣٠

نيوتن : ولد عام ١٦٤٢ ، ومات عام ١٧٢٧

والأرض في نظر الادريسي مقسمة قسمين بينهما خط الاستواء وهو من المشرق الى المغرب وهذا هو طول الأرض وهو أكبر خط في الكرة ، كما أن منطقة البروج أكبر خط في الفلك ، وامتداد الكرة في موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة ، والدرجة خمسة وعشرون فرسخا ، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع ، والذراع أربعة وعشرون أصبعا ، والأصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصقة بطون بعضها لظهور بعض .

ويقسم الادريسي الأرض بعد ذلك الى سبعة أقاليم ، وتخترق هذه الأقاليم السبعة سبعة أبحر يسميها خلجانا ، ستة منها متصلة ، وبحر واحد منفصل لا يتصل بشيء من البحور المذكورة .

وأحد هذه البحور التي في الأرض المعمورة هو بحر الصين والهند والسند واليمن ، ومبدؤه من جهة المشرق فوق خط الاستواء الى جهة المغرب ، فيمر بالصين أولا ثم بالهند ثم بالسند ثم باليمن على جنوبها وينتهي الى باب المندب .

وليس من شك أن فهم الادريس للتضاريس ، وتمييزه بين البحار ، كان قاصرا ، بيد أنه كان متأثرا بالمعارف الموجودة في هذه الفترة من التاريخ .

وهكذا استطعنا أن نضع أيدينا في كتاب الادريسي على كثير من المعلومات في الجغرافية الفلكية والطبيعية والاقتصادية ، كما ظهرت في كتابه لمحات عن النظم الاجتماعية عند مختلف الجماعات

والأقوام ، وذلك من حيث توزيعها ، وعلاقتها بالبيئة ، ثم علاقة بعضها ببعض ، أو ما يسمى بالجغرافيا الاجتماعية .

كما ظهرت فى كتاب الادريس تلك الصلة بين الجغرافيا الاقتصادية ، حيث أن هنالك صلة وثيقة بين نوع الانتاج ونوع العمل الذى تقوم به الجماعة .

ولا يخلو كتاب الادريس من لمحات لتوزيع الأجناس البشرية على سطح الأرض ، وعلاقة ذلك التوزيع بالمناطق المختلفة ، وهو ما يعرف عند علماء الجغرافيا المحدثين بالجغرافيا الجنسية .

وهناك اشارات مختلفة الى نظم الحكم السائدة فى بعض المناطق مما يعد محاولة أولى لدراسة الجغرافيا السياسية .

بيد أن الادريسي يستحق كل أعجاب وتقدير ، اذ استطاع - مع ما فى كتابه من أخطاء جغرافية - أن يضع أمام من أتوا بعده من الجغرافيين أساسا للبناء .

وقد وجدت من كتابه نسخة خطية بمكتبة باريس عام ١٨٢٠ ، فترجمها « جوبرت » الى اللغة الفرنسية ونشرت بين عامى ١٨٣٦ و ١٨٤٠ ، وقد ترجمه يوحنا الحصري وجبرائيل الصهيونى الى اللغة اللاتينية ونشراه مع النسخة العربية . وهاتان النسختان المنشورتان اختصارا لنسخة موجودة فى مكتبة الاسكوريال بأسبانيا وقد طبعت ترجمة الحصري وجبرائيل فى باريس .

ونشر الأستاذان دوزى ودى غويه مختصرا للكتاب أطلقا عليه « صفة المغرب والسودان » وطبع قسم من الكتاب فى « بانورمي » عام ١٧٩٠ ، ومنه « ذكر الأندلس » تأليف شريف الادريسي « كذا » ومعه ترجمة أسبانية بقلم المستشرق كوندى عام ١٧٩٩ .

وطبع الكتاب أيضا فى مدريد عام ١٨٨١ ومعه ترجمة أسبانية للاستاذ سافدرا وترجم اميدى جوبار الى الفرنسية جغرافيسية

الشريف الادريسي عن النسخة الموجودة في مكتبة باريس وطبعها بين عامي ١٨٧٧ و ١٨٧٩ ، ومنه جزء يشتمل على مقدمة وصفه البلاد التي هي الآن مملكة ايطاليا ، ومعها ترجمة ايطالية وشروح وتعليقات بقلم اماري وشيا بارلي .

وطبع الكتاب في مدينة ليبزج عام ١٨٢٨ على وجه التقريب مرة أخرى ، وقام بطبعه العالم روزون ملر .

وذكر المؤرخ الكبير المرحوم أحمد زكي «باشا» في مقال له نشره بجريدة المؤبد في ٦ فبراير عام ١٩١٢ أنه تمكن من العثور على أربع نسخ خطية من هذا الكتاب ، ولم يكن في دار الكتب الخديوية منه الا الجزء الأول مكتوبا بخط جميل ومتضمنا للمصورات الجغرافية (الخرائط) ، غير أنه طرأ عليه تنسويه وتحريف كبير قلل من قيمتها العلمية .

وجاء في مقدمة هذه النسخ التي عثر عليها أحمد زكي بأسا أن الادريسي ألف هذا الكتاب مصورا لأشكال الكرة الأرضية وصورها ، وزاد عليها بوصف الأحوال والأرضية : في خلقها وبقاعها . وأماكنها وصورها ، وبحارها وجبالها وأنهارها ، ومزروعاتها وغلاتها ، وأجناس بنائها وضواحيها والاستعمالات التي تستعمل بها ، والصناعات التي تنفق فيها ، والتجارات التي تجلب اليها وتحمل عنها ، والعجائب التي تذكر عنها وتنسب اليها .

أما « الكرة الأرضية » التي قام الادريسي بصنعها للملك روجر فانها كانت عظمة الجرم ضخمة الحجم ، في وزن أربعمئة رطل رومي ، في كل رطل منها مائة درهم واثنان عشر درهما . وقال الادريسي أنها تضمنت صور الأقاليم ببلادها وأقطارها ، وسيفها وريفها ، وخليجاتها ومجاري مياهها ، ومواقع أنهارها ، وعامرها وغامرها ، والطرق ، والأميال ، والمسافات ، والمشاهد . .

أما الملك روجر نفسه الذى كلفه وضع هذا الكتاب ، وقدم اليه الادريسي هذه الكرة ، فهو « رجار المعترز بالله ، المقتدر بقدرته » . ملك صقلية وإيطاليا وانكبروه (لومبارديا) وقيلوريه (كالابريا) مقر امام رومية الناصر للملة النصرانية اذ هو خير من ملك الروم بسطا وقبضا ، وصرف الأمور على ارادته ابراما ونقضا ، ودان فى ملته بدين العدل ، واشتمل عليهم بكنف التطول والفضل ، وقام بأسباب مملكته خير قيام ، وأجرى سنن دولته على أفضل نظام وأجمل التمام ، وافتتح البلاد شرقا وغربا ، وأذل رقاب الجبابرة من أهل ملته بعدا وقربا . »

ولما اتسعت أعمال مملكته أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقينا وخبرة ويعلم حدودها ومساكنها برا وبحرا ، وفى أى اقليم هى مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار وطلب ما فى الكتب المؤلفة فى هذا الفن - مثل كتاب العجائب للمسعودى وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى وكتاب أبى القاسم عبيد ابن خرداذبة ، وكتاب أحمد بن عمر العذرى ، وكتاب أبى القاسم محمد الحوقلى البغدادى ، وكتاب جاناخ بن خاقان الكيماكى ، وكتاب موسى بن قاسم الفردى وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب بطليموس القالوذى ، وكتاب أرسىوس الأنطاكى . . الخ - فلم يجد ذلك فيها مشروحا مستوعبا مفصلا . . فأحضر اليه العارفين بهذا الشأن ، فلم يجد عندهم أكثر مما فى الكتب المذكورة ، فلما رأهم على مثل هذه الحال ، بعث الى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها .

وقد شفى الادريسي غليل الملك « روجر » بتأليف هذا الكتاب وبلغ من اكرامه له أنه كان كلما دخل عليه هرع لاستقباله عند الباب ، وأجلسه الى جانب سرير الملك . حتى اذا ماتم المحاضرات معه ، وأفاده بما أراد . ثم هم بالخروج . . شيعه الملك بنفسه الى عتبة القصر . .

وقد كان هذا الملك أحد الملوك المورماندين الذين نهضوا
بتشجيع العلماء من العرب وبمساعدة المترجمين الذين تولوا نقل
الآثار العربية الى اللاتينية ، تلك الآثار التي استطاع العرب في
أثناء الأعوام المائة والثلاثين التي حكموا فيها جزيرة صقلية أن
ينسروها بين أهل الجزيرة ، ويفرسوا شجرة المعرفة في أرض
خصبة ظل أنرها جنباً حتى بعد أن استولى النورمانسيون على
الجزيرة عام ١٠٩١ م .

ابن جبير

رحالة مشهور ، واسمه أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير ابن سعيد الكنانى الأندلسى ولد بمدينة « بلنسية » فى ١٠ من ربيع الاول عام ٥٤٠ هـ (أول سبتمبر عام ١١٤٥ م) واجتهد فى تحصيل العلوم حتى أصبح أديبا مجيدا ، وكان ذا حس مرهف ، يقرض الشعر فى شتى الأغراض ولا سيما الحكمة وتجارب الزمان .

ولم يقم ابن جبير برحلة واحدة ، بل قام بثلاث رحلات .
فقال : « رحل ثلاثا من الأندلس الى المشرق ، وحج فى كل واحدة منها .
فصل عن غرناطة أول ساعة من يوم الخميس لثمان خلون من شوال عام ٥٧٨ هـ (٤ من فبراير سنة ١١٨٣ م) وصنف الرحلة المشهورة .
ولما شاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس قوى عزمه على أعمال الرحلة الثانية ، فتحرك اليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة ٥٨٥ هـ (٢٧ أبريل سنة ١١٨٩ م) .
ثم أب الى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان عام ٥٨٧ هـ (٥ من سبتمبر ١١٩١ م)
وسكن غرناطة ثم مالقه ثم سبته ثم فاس ، منقطعا لسماع الحديث « والتصوف ، وترويه ماعنده ، ثم رحل الثالثة من سبته » بعد موت زوجه عائكة أم المجد بنت الوزير أبى جعفر الوقشى - وكان كلفه بهاجما ، فعظم وجده عليها ، فوصل مكة ،

وجاور بها طويلا ، ثم بيت المقدس . ثم تحول لمصر والاسكندرية
فأقام يحدث ويؤخذ عنه الى أن لحق بربه . »

وكان باعنه على القيام برحلته الأولى دينيا ، ذلك أنه خرج حاجا
تكفيرا عن معصية وقع فيها ، فباع ملكا له تزود به ، ورحل قاصدا
بيت الله .

وصاحب ابن جبير فى هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن حسان
ابن أحمد بن الحسن القضاوى وكان أبو جعفر متحققا بعلم الطب .
وزار ابن جبير فى رحلته مصر والشام والحجاز وصقلية ،
وتفقد آثارها ، ومساجدها ، ودواوينها ، ودرس أحوالها ، وذكر
ماشاهده وما كابده ، ووصف حال مصر فى عهد صلاح الدين
الايوبى والمسجد الأقصى ، والجامع الأموى ، والساعة العجيبة
فيه .

وقد أخذ ابن جبير بمنظر النيل الجميل . وبعد أن زار
الاسكندرية توغل فى الوجه البحرى فوصل مدينة دمنهور . وهى
على حد تعبيره بلد « مسور فى بسيط من الأرض فسيح » ويقصد
بذلك أنها بلدة محاطة بسور تمتد فى أرض واسعة ، وتربط هذه
المدينة بين الاسكندرية والقاهرة وهذا البسيط من الأرض كله
« محرث » يعمه النيل بفيضه ، والقرى فيه يمينا وشمالا ، لاتحصى
كنزة .

ويقول ابن جبير أنه بعد ذلك بأيام اجتاز النيل فى موضع
يعرف باسم « صا » فى مركب تعديه ثم وصل الى موضع يعرف
باسم « برمة » وبات فيه ، وهو قرية كبيرة فيها سوق ومرافق
شتى .

ويواصل ابن جبير وصفه بعد ذلك فيصف كثيرا من القرى
والمدن الواقعة على النيل ، حتى يصل الى مدينة القاهرة .

وتعرض - عند الحديث على مناقب صلاح الدين الأيوبي - لوصف القناطر التي شرع في بنائها في غرب مصر وعلى مقدار سبعة أميال منها ، بعد القيام بعمل رصيف طويل ، ابتدئ به من حيز النيل بازاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض ، والقنطرة متصلة بالصحراء التي يفضى منها الى الاسكندرية * وعندما وصل الى الروضة تعرض للمقياس ، وقال انه عمود من الرخام أبيض اللون متمن الشكل ، في موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه اليه * وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعا مقسمة على أربعة وعشرين قسما تعرف بالأصابع * ويدرك النيل الفيضان عندما يكون مستوفيا تسع عشرة ذراعا ، وهذا القدر هو الغاية عند المصريين في فيضان النيل وقتذاك * وقال ان الفيضان المتوسط هو ما استوفى سبع عشرة ذراعا * ويعطى الخراج ، ويعطى السلطان الأوامر لذلك ، عندما يدرك الفيضان ست عشرة ذراعا *

وعندما سافر ابن جبير الى الصعيد ، وصف المدن الواقعة على النيل وصفا دقيقا ، وصور الحياة في هذا النهر العظيم الذي تتوقف عليه حياة أهل الوادي * وكان ابن جبير لا يفتأ يذكر الخيرات السائدة على ضفاف النيل ، والأنام الذين ينتشرون بين أرجائها ، والأنعام التي تسعى على الأرض وهي تنقل الخير وتحث الأرض ، وتدر النفع للناس *

ومما ذكره في وصف القلعة بالاقليم المصري قوله : « وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة ، حصين المنعة يريد السلطان أن يتخذ موضع سكناه ، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة * والمستخرون في هذا البنيان ، والمتولون لجميع امتهاناته ومثوثته العظيمة - كنشر الرخام ، ونحت الصخور العظام ، وحفر الخندق المصدق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعاول نقرا في الصخر ، عجبا من

العجائب الباقية الآثار - العلوح (الأعاجم) الأسارى من الروم
وعدهم لا يحصى كثرة ولا سبيل أن يمتحن فى ذلك أحد سواهم .»

وقال فى وصف المارستان : « ومما شاهدناه أيضا من مفاخر
هذا السلطان المارستان الذى بمدينة « القاهرة » وهو قصر من
القصور الرائقة حسنا واتساعا ، أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا
واحسانا ، وعين قيما من أهل المعرفة ، وضع لديه خزائن العفاير
ومكنه من استعمال الأشربة ، واقامتها على اختلاف أنواعها .
ووضعت فى مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع
كاملة الكسى ، وبين يدى ذلك القيم خدمة يتكلفون بتفقد أحوال
المرضى بكرة وعشية فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم
.. وبازاء هذا الموضع ، موضع مقتطع للنساء المرضى ولهن أيضا
مايكفلهن . ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع
الفناء ، فيه مقاصير عليها شبايك الحديد ، اتخذت محابس
للمجانين . ولهم أيضا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بما
يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال
ويؤكد فى الاعتناء بها ، والمثابرة عليها غاية التأكيد . »

ووصف الأهرام فقال : وبمقربة من هذه القنطرة المحسنة
« الأهرام » القديمة المعجزة البناء الغربية المنظر ، المربعة الشكل ،
كانها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء ، ولا سيما الاثنان
منها فانهما يفض الجو بهما سموا ، فى سعة الواحد منها من أحد
أركانها الى الركن الثانى ثلاثمائة خطوة وست وستون خطوة ، فد
أقيمت من الصخور العظام المنحوتة ، وركبت تركيبا هائلا ، بدع
الاصاق ، دون أن يتخللها مايعين على الصاقها ، محددة الأطراف ،
فى رأى العين . وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة ، فتلقى
فى أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب ، لو رام أهل
الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك . »

وأفاض ابن جبير في وصف مشاهد أهل البيت رضى الله عنهم ، ومشاهد بعض أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - ، ومشاهد الشريقات العلويات ، ومشاهد الأئمة والعلماء الزهاد .

وقال ابن جبير في وصف مشهد الامام الشافعى : « وهو من المشاهد العظيمة احتفالا واتساعا ، وبنى بازائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء ، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بازائها الحمام ، الى غير ذلك من مرافقها . والبناء فيها حتى الساعة ، والنفقة عليها لاتحصى . تولى ذلك بنفسه الشيخ الامام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى ، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول : زد احتفالا وتألقا ، وعلينا القيام بمثونة ذلك كله . . فسبحان الذى جعل صلاح دينه كاسمه » .

ووصف ابن جبير عقب ذلك رحلته فى صعيد مصر ثم وصوله الى عيذاب والبحر الاحمر وجدة فالمسجد الحرام والبيت العتيق ، والحرم الشريف وأبوابه ، ومكة ومناحيها المختلفة ، وخيراتها وتمراتها ومما قاله فى ثروتها الاقتصادية قوله :

« وأما لحوم ضأنها فهناك المعجب العجيب . وقد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق وضرب نواحي الأقطار ، انها أطيب لحم يؤكل فى الدنيا . وما ذاك - والله أعلم - الا لبركة مراعيها ، هذا على افراط سمنه ، ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهى الى ذاك المنتهى فى السمن للفظته الأفواه زهما وتعافيه وتجنبته . . والأمـر فى هذا بالضد ، كلما ازداد سمننا زادت النفوس فيه رغبة والنفس له قبولا : فتجده هنيئا رخصا ، يذوب فى القم قبل أن يلاك مضغعا ، ويسرع لخفته عن المعدة انهضاما » .

وقال فى وصف ما اشتهرت به مكة من رطب جنى طار صيته فى الآفاق : « ومن أغرب ما ألقيناه فاستمتعنا بأكله ، وأجرينى

الحديث باستطابته - ولا سيما لكوننا لم نعهده - الرطب وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر فى شجره ، يعجنى الناس اليه كخروجهم الى الضيعة ، أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب ، ثم بعد ذلك عندئهاى نضجه ، ييسط على الأرض قدر مايجف قليلا ، ثم يركم بعضه على بعض فى السلال والظروف ويرفع » .

وتعرض ابن جبير فى رحلته الى الاراضى المقدسة الى وصف حمامى مكة ، ومنع النفقة لاصلاح الحرم ، والعمله الرجبية ، وقبائل السرو ، وهم أهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسراة . ومن طريف ما ذكره عنهم قوله : « وأما صلاتهم فلم يذكر من مضحكات الأعراب ، أطرف منها ، وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم ، فيسجدون دون ركوع ، وينقرون (أى يسرعون) بالسجود نقرا » .

ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ، ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والأربع ، ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلا ، وأيديهم مبهسوة عليها ، ويلتفتون يمينا وشمالا التفتات المروع ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد » .

وذكر ابن جبير بعد ذلك أفراد البيت للنساء الخاصصة ، واجتماعهن به من كل صوب وحذب ، ثم غسل البيت بماء زمزم المبارك ، والاحتفال بنصف شعبان ، ثم الاحتفال بشهر الصوم المبارك فعيد الفطر والوقوف بمنى ، وصلاة الاستقاء ، ووصف جبل ثور الذى آوى اليه النبى - صلى الله عليه وسلم - مع صاحبه الصديق ، فمسجد الرسول ودار خديجة رضى الله عنها ، فدار الخيزران التى كان منها منشأ الاسلام ، وهى بازاء الصفا ، ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل إليها كان مسكن بلال مؤذن

الرسول رضى الله عنه ، وبين مناسك الحج ، ومغادرة مكة
والرحلة الى المدينة •

حتى اذا ما استوفى غرضه من وصف البلاد المقدسة ، رحل
ابن جبير الى العراق ووصف الكوفة والحلة وعبر نهرا يسمى
« النيل » - وهو فرع متشعب من الفرات - وكان عليه ازدهار
مفرق كبير من الناس والدواب في الماء • ثم وصف ابن جبير
بغداد مدينة السلام وذكر طرفا من معالمها ، وشيئا عن شخصياتها
وعلمائها ، ومجالس شيوخها ، فمدينة تكريت وهى من المدن
العنقة فى العراق - فمدينة الموصل ، ووصف مساجدها ،
وحماماتها ، وخاناتها وأسواقها •

ووصف ابن جبير مدينة نصيبين ، ومدينة دنيصر ورأس
العين وحران ومنبج وبراعة وحلب وحمص وحماة ، وغيرها من
مدن سوريا •

ووقف فى دمشق وقفة طويلة • وأيد قول القائلين عنها :
« ان كانت الجنة فى الأرض فدمشق لاشك فيها وان كانت فى
السماء فهى بحيث تسامتها وتحاذيها » • ووصف جامعها المشهور
ومساحته وعدد أبوابه وشمسياته ، ووصف آثار دمشق وعادات
أهلها • ومن طريف ما ذكره من آثارها أنها تضم بيتا صغيرا جدا
قد اتخذ مصلى وفى قبلته حجر يقال أن ابراهيم عليه السلام كان
يكسر عليه الآلهة التى كان يسوقها أبوه للبيع • كما وصف ابن
جبير مدينة بائياس وصور ، وصف زفافا تم فى هذه المدينة ،
وصور حالة المسلمين أيام الحروب الصليبية ، ثم ركوبه البحر
الأبيض المتوسط ، ووصوله الى مدينة « مسينا » فى جزيرة
صقلية وصور حالة المسلمين فى صقلية بعد أن أفاض فى ذكر
معالمها وآثارها ومساحتها : « طول هذه الجزيرة (صقلية) سبعة
أيام ، وعرضها مسيرة خمسة أيام • وبها جبل البركان المذكور

وهو ياتزر بالسحب لافراط سموه ، ويعتم بالنلج شتاء وصيفا دائما . وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف . وكفى بأنها ابنة الأندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهية مسحونة بالأرزاق على اختلافها، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها . ووصف حال المسيحيين أيضا فى الجزيرة وصفا شائقا جميلا ، وصور أعيادهم الدينية تصويرا شاهدعيان لانعوزه الدقة ، ولا تضيق عنه شاردة ولا واردة : « ومن أعجب ما شاهدناه كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكي . أبصرنا يوم الميلاد - وهو يوم عيد لهم عظيم - وقد احتفلوا لها رجالا ونساء ، فأبصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه ، ويقع القطع بأنها أعجب مصانع الدنيا المزخرفة . جدرها الداخلة ذهب كلها ، وفيها من ألواح الرخام الملون مالم ير مثله قط ، قد رصعت كلها بفصوص الذهب ، وكللت بأشجار القصوص الخضر ، ونظم أعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج ، فتخطف الأبصار ، بساطع شعاعها وتحدث فى النفوس فتنة نعوذ بالله منها » .

ووصف حال المسلمين فى صقلية فقال : « ووصل هذه الأيام الى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدهم ، القائد أبو القاسم بن حمود ، المعروف بابن الحجر وهذا الرجل من أهل بيت بهذه الجزيرة توارثوا السيادة كابرا عن كابر ، وقرلدنا مع ذلك أنه من أهل العمل الصالح ، مريد للخير ، محب فى أهله كثير الصنائع الأخروية ، ومن افتكاك الأسارى وبث الصدقات فى الغرباء ، والمنقطعين من الحجاج - الى مآثر جمة ، ومناقب كريمه - فارتجت هذه المدينة بوصله . . » .

غير أن ابن جبير أشار فى رحلته الى ظاهرة خطيرة عند أهل الجزيرة وهى أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته ، أو تعظييب المرأة على ابنها ، فتلحق المفضوب عليه أنفة تؤديه الى التطارح فى الكنيسة فيتنصر ويتمعد . . فلا يجد الأب لابن سميلا ولا الأم الى البنت سميلا .

هذا هو موجز رحلات ابن جبير . وغنى عن البيان أن هذه الرحلات قد أفسحت من تفكيره ، ووسعت مداركه ، وأكثرت تجاربه وظهر أثر ذلك واضحا جليا فيما سطره من أقوال أو أشعار ومن ذلك قوله :

عجبت للمرء في دنياه تطعمه نمى ويصبح في عشواء يخطبها يفتر بالدهر مسرورا بصحبته ويجمع المال حرصا لا يفارقه تراه يشفق من تضييع درهمه وأسوأ الناس تدييرا لعاقبه	في العيش والأجل المحتوم يقطعه أعمى البصيرة والآمال تخدعه وقد تيقن أن الدهر يصرعه وقد درى أنه للغير يجمعه وليس يشفق من دين يضيعه من أنفق العمر فيما ليس ينفعه
--	---

وقال ابن جبير أيضا :

أيها المستطيل بالبغي أقصر وتذكر قول الإله تعالى	ربما طأطا الزمان الروسا ان قارون كان من قوم موسى
--	---

وقال ابن جبير كذلك :

الناس مثل ظروف حشوها صبر تفر ذاتها حتى اذا كشفت	وفوق أفواها شيء من العسل له تبين ماتحويه من دحل
--	--

وقال في الحكمة والأصحاب :

صبرت على غدر الزمان وحقده وحربت اخوان الزمان فلم أجد وكم صاحب عاشرته وألفته وكم غرني تحسين ظني به فلم	وسأب الى السم الزعاف بشهده صديقا جميل الغيب في حال لبده فمادام لي يوما على حسن عهده يضى لي على طول امتداحي لزنده
--	---

هذا وقد طبعت رحلة ابن جبير للمرة الأولى في « لندن » عام ١٨٥٢ مع مقدمة للمستشرق « وليم رايت » ثم أعيد طبعها في لندن عام ١٩٠٧ بعد أن نفحها « دى غويه » وحقق المستشرق « أمارى » الجزء الخاص بصقلية وترجمه الى الفرنسية ونشره في المجلة الآسيوية عام ١٨٤٠ - ١٨٤٦ . وعلق على ترجمته الشيخ الطنطاوى .

ونشرت بالعربية في أوائل هذا القرن ، ثم فى أوائل النصف الثانى منه (مكتبة مصر بالفجالة عام ١٩٥٥)

وتوفى ابن جبير فى الاسكندرية عام ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) .

ابن حوقل

هو أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى الموصلى ، أحد السائحين المشهورين فى الاسلام . كان تاجرا فى الموصل ، وسافر من بغداد وطاف البلاد الاسلامية ووصفها ، كما وصف بلاد البربر وصفا جميلا خلابا ، وجال فى بلاد الأندلس ، ودخل جزيرة صقلية ، وجال فى العراق وفارس وغيرهما من البلاد ودامت رحلاته حوالى ثمانية وعشرين عاما ، وكان ذلك فى القرن الرابع للهجرة . وألف فى رحلاته كتابا جميلا يسمى « المسالك والممالك » ، وهو مثل كتاب « مسالك الممالك » للأصطخرى أو الكرخى صاحب هذا الكتاب وكتاب الأقاليم . بيد أن ابن حوقل أضاف على الاصطخرى فى وصفه . وقد ترجم كتاب ابن حوقل الى الانجليزية وطبع فى لندن عام ١٨٠٠ وترجم بعضه المختص بأفريقيا وطبع فى باريس عام ١٨٤٢ ، وطبع منه قسم ثالث فى باريس ١٨٤٥ .

ويصف هذا القسم مدينة بالما عاصمة جزيرة صقلية . وقد نشره الأستاذ أمارى مع ترجمة فرنسية .

واقصر ابن حوقل فى كتابه على وصف أكبر البلاد الاسلامية ، ولم يتعرض لغيرها الا قليلا واعتمد فيما ذكره فى كتابه المذكور

ما عاين وما حكى له ، غير مثبت ولا فاحص احيانا . . فوقع لذلك في كثير من الأغلط والأوهام .

وظهر في كتاب ابن حوقل لون من التحيز للمسلمين على غيرهم من شعوب الأرض ، وكان يعود على الفرنج بالذم ، وقال مامعناه « وأما بلاد النصارى والحبشة ، فلا أتكلم عليها الا يسيرا لما أن تولعى بالحكمة والعدل والدين وانتظام الأحكام يأبى أن أثنى عليهم بشئ من ذلك ! »

وقد اتفق ابن حوقل مع « المقدسى » فى الاختصار على وصف مملكة الاسلام . ويعترف المقدسى كذلك بأنه لم يتكلف وصف ممالك الكفار لأنه لم يدخلها ، كما يضيف قائلا فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » أنه لم يذكر الا مواضع المسلمين منها ، وكان عدم دخوله لها كافيا فى منعه من التعرض لوصفها ، لأنه كان يجعل المشاهدة ومعاينة ما يريد الكلام عنه أول دعامة لكتابه .

لكن ابن حوقل يعود فيقول انه شاهد كل ما كتب عنه وعاينه . . الا الصحراء الغربية فيعترف بأنه لم يشاهد جميعها . وهذا القول يحتاج الى نظر . فهناك كثير من الأخطاء التى تردى فيها ابن حوقل وتدل على أنه لم يزُر جميع المناطق التى تناولها بقلمه وأجرى عليها وصفه .

وجاء فى مقدمة كتاب ابن حوقل : « هذا كتاب المسالك والممالك والمفاوز والممالك ، وذكر الاقاليم والبلدان ، على مر الدهور والأزمان ، وطبائع أهلها ، وخواص البلاد فى نفسها ، وذكر جباياتها وخراجاتها ، ومستغلاتها ، وذكر الأنهار الكبار ، واتصالها بشطوط البحار ، وما على سواحل البحار من المدن والأمصار ، ومسافة ما بين البلدان للسفارة والتجار ، مع ما ينضاف الى ذلك من الحكايات والأخبار ، والنوادر والآثار . . تأليف أبى القسم

(هكذا) بن حوقل رحمه الله ، مختصر في صور بلاد الاسلام ،
واخبارها بالكمال والتمام ، جمع الامام العالم أبي القاسم محمد
الحوقلي البغدادي رحمه الله تعالى ، معول فيما جمعه على كتاب الامام
العالم أبي القاسم محمد بن خردادبه ، وقدامة بن جعفر الكاتب ،
تقدمهم الله برحمته ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .
حسبنا الله ونعم الوكيل » .

ويؤخذ من مقدمة الكتاب أن الذي دفعه الى تأليفه شغفه بقراءة
كتب المسالك منذ ريعان شبابه ، وأنه ترعرع فقرا . الكتب الجليلة
المعروفة ، والتأليف الشريفة الموصوفة : فلم يقرأ في المسالك كتابا
مقنعا ، وما رأى فيها رسما متبعا ، فدعاه ذلك الى تأليف هذا
الكتاب واستنطاقه فيه وجوها من القول والخطاب . وأعانه على
ذلك تواصل السفر ، والشهوة لبلوغ الوطر ، وتواصل الشدائد
على أهل المشرق والعدوان ، واستثناس سلاطينه بالجور بعد العدل
والطفيان ، وكثرة الجوائح والنوائب وتعاقب الكلف والمصائب
واختلال النعم ، وقحط الديم » .

وقد حاول ابن حوقل في كتابه أن يرسم حدود الأقاليم
المختلفة ، ويفصل كل اقليم عن الآخر وقد تكون هذه الحدود نوعا
وشكلا وتضاريس : فبعضها جبال ، وبعضها صحارى ، وبعضها
سهول . وأما مملكة الروم ، فإن شرقيها بلاد الاسلام وغربيها
وجنوبيها البحر المحيط ، وشمالها وجنوبيها البحر المحيط ،
وشمالها حدود عمل الصين (لأنه ضم ما بين الأتراك وبلد الروم
من الصقالبة ، وسائر الأمم التي تلى الروم الى بلد الروم) . وأما
مملكة الصين فإن شمالها وشرقيها البحر المحيط ، وجنوبيها
مملكة الاسلام والهند وغربيها أيضا البحر المحيط لأن
يأجوج وماجوج ومن اليهم الى البحر المحيط من هذه المملكة وأما
أرض الهند فإن شرقيها بحر فارس ، وغربيها وجنوبيها بلاد
خراسان ، وشمالها مملكة الصين .

وأما البحار فأشهرها عند ابن حوقل بحران وأعظمها بحر فارس تم بحر الروم . وهما خليجان متقابلان يأخذان من البحر المحيط . وأفسحهما طولاً وعرضاً بحر فارس .

وروي ابن حوقل في كتابه عن سبقه من الجغرافيين ، فقال مثلا ان مملكة الصين - على ما يزعم أبو اسحاق الفارسي وأبو اسحق ابراهيم بن التبركيين حاجب صاحب خراسان - أربعة أشهر في ثلاثة أشهر . . . ويقصد بذلك أن المسافر يقطعها سفراً في هذه المدة .

كما قال عن مملكة الاسلام أن طولها من حد فرغانة حتى يقطع خراسان والجيل والعراق وديار العرب الى سسواحل اليمن ، فطولها نحو خمسة أشهر ، وعرضها من بلدة الروم حتى يقطع الشام والجزيرة والعراق وفارس وكردان الى أرض المنصورة على شاطئ بحر فارس نحو أربعة أشهر ، كما أنها تضم كذلك ليبيا وقران والمغرب العربي .

وقد أخذ ابن حوقل في كتابه يفصل أقاليم الاسلام اقليمياً اقليمياً ، وصور ما يستحقه كل اقليم من الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث ، ووصف ما يقع في تضاعيفه من المدن وسائر ما يحتاج الى علمه

واستهل ابن حوقل وصفه لديار العرب في الحجاز ، لأن القبلة مكة هناك وهي أم القرى وبلد العرب وأوطانهم التي يشركهم في سكناها غيرهم

ويؤخذ من وصف ابن حوقل لمكة أنه ليس بها ماء جار الا شيء أجرى اليها من عين ، وليس لأهل مكة آبار يشرب منها الا زمزم ، ولا يمكن الايمان على شرب مائها ، وليس بجميع مكة شجر مثمر غير شجر البادية . واذا جزت الحرم فهناك عيون وآبار وحوايط

(أى بساتين) كثيرة وأودية ذات خضر ومزارع ونخيل • ونبيير جبل منصرف يرى من منى والمزدلفة • وكانت الجاهلية لاتدفع من المزدلفة الا بعد طلوع الشمس اذا أشرقت على ببير ، وبالمزدلفة المشعر الحرام ، وهو مصلى الأمام يصلى فيه المغرب والعشاء الآخرة والصبح • والحديبية بعضها من الحل وبعضها من الحرم ، وهو مكان صد المشركون فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن المسجد الحرام من أبعد الحل الى البيت • وليس هو فى طول الحرم ولا عرضه ، الا أنها فى زاوية للحرم •• فلذلك صار بينها وبين المسجد أكثر من يوم •

أما المدينة فقد وصفها ابن حوقل بأنها أقل من نصف مكة ، وهى فى حرة سبخة الأرض ، ولها نخيل كثيرة ، ومياه نخيلهم وزروعهم من الآبار ، يسقون بها العبيد ، وعليها سور ، والمسجد فى نحو وسطها وقبر النبى - صلى الله عليه وسلم - من المسجد فى شرقيه قريبا من القبلة قريبا من الجدار الشرقى فى بيت مرتفع بين سقفه وسقف المسجد فرجة ، ولا باب له ، وله زاويتان •• والمنبر الذى كان يخطب عليه - عليه الصلاة والسلام - قد غتسى بمنبر آخر . والروضة أمام المنبر بينه وبين القبر والمصلى الذى كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يصلى فيه الأعياد فى غربى المدينة داخل سورها •

⁴ ويلاحظ أن وصف ابن حوقل للمدينة لا يختلف كثيرا عن وصف غيره من المؤرخين الذين زاروا هذه الأماكن • وليس لابن حوقل تجديد فى هذا الميدان ، بيد أنه أضفى ثقافته على وصفه ، واستخدم علمه فى التعليق على وصفه الجغرافى ومن ذلك قوله : « وأعذب ماء فى الناحية آبار العقيق » فانه لا يلبث أن يروى بعد ذلك حديثا عن الرسول بأن غبار المدينة أمان من الجذام ، ومن أقام بها وجد فى ترابها وهوائها رائحة ليست فى « الارائح » طيبا •

وقد أشار ابن حوقل كذلك الى بعض الثروات الاقتصادية في الأماكن التي زارها ، ومن ذلك وجود اللؤلؤ في الخليج الفارسي ، ووجود الذهب والزمرد وغير ذلك من المعادن بجوار البحر الأحمر وقد أثبت البحث العلمي الحديث صحة هذا القول ، وذهبت هناك بعثات استكشافية لهذا الغرض ، ورجع أكثر هذه البعثات بعد أن اكتشفت كثيرا من المعادن النفيسة . كما قال ابن حوقل في الثروة المعدنية في الأندلس . وبالأندلس الزئبق والحديد والرصاص » وأضاف قائلا : « ومن الصوف قطع كأحسن ما يكون الأرمني المحفور الثمن ، الى حسن ما يعمل بها من الأنماط . ولهم من الصوف والأصباغ فيه ، وفيما يعانون صبغه بدائع بحشائش (تختص) بالأندلس تصبح بها اللبود المغربية المرتفعة الثمينة ، والحرير وما يؤثرونه من ألوان الخز والقرز ، ويجلب منها الديباج ولم يساوهم في أعمال لبودهم أهل بلد على وجه الأرض ، وربما عمل لسلطانهم لبود ثلاثيني يقوم البلد منها بالخمسين والستين دينارا ، غير أنه قد جعل عروضها خمسة وستة أشبار ، فهي في محاسن الفرش . وهناك المشمع فيمنع المطر أن يصل الى لابس ٠٠ »

فهذا كلام عن الثروة الاقتصادية في الأندلس يلقي أضواء باهرة على هذه المنطقة ، بل يشير الى صناعات مختلفة نمت وترعرعت هناك ، ومنها صناعة الحرير والصبغة ، وعمل الفرش والمشمع وما اليه ، وصناعة الملابس . وكل هذه النواحي تقيّد في الناحية التجارية ، كما توضح عمل الأهالي .

والطريف أن ابن حوقل أشار في كتابه عند وصوله الى مصر الى خصوبة تربتها ، ونضارة زروعها ، وكثرة خيراتها ، ثم قال : « بمصر بغال وحمير لا يعرف في شيء من بلدان الاسلام والكفر أسير منها ولا أحسن ولا أئمن ، غير أنها مخططة الخلق ، غير عبلة

الأبدان ، ولا رطوبة الجسوم . وقد تجلت الى بعض الأماكن فتتغير وتمتلئ أبدانها ، وهي الغاية فى سرعة السير وحسن المنى والوطأة ولهم من وراء أسوان حمير صغار فى مقدار الكباش الكبار ملمعة الجلود ، يشبه تلميعها جلود البقر وقد يكون منها الأصفر المدنر والأشهب المدنر ، فتكون فى غاية الحسن . »

فهنا يشير ابن حوقل الى الثروة الحيوانية فى مصر ، مما يفيد الباحث فى دراسته . كما أشار ابن حوقل كذلك الى مايصنع فى مدينة تنيس ودمياط من فاخر الثياب ، وربما بلغت الحسنة من الثياب مائتى دينار اذا كان فيها ذهب ، وقد يبلغ ثمن مالا ذهب فيها مائة دينار أو أكثر .

أما الاسكندرية فقد قال ابن حوقل عنها انها مدينة على بحر الروم ، ورسومها بنية ، وآثار أهلها ظاهرة ، تنطق عن ملك وقدرة وتعرف عن تمكّن فى البلاد ، وسمو ونصرة ، وتفصح عن عظمة وعبرة ، كبيرة الحجارة ، جليلة العمارة . وبها من العمد العظام وأنواع الأحجار الرخام الذى لاتحمل القطعة منه الا بالوف ناس . واستشهد ابن حوقل فى وصفها ببيت من الشعر جاء فيه :

فلو سئلت عن أهلها لرأيتها مخيرة عن حالهم بالعظام
ولها طرقات مفروشة بأنواع الرخام والحجر الملون ، وفى أماكن متفرقة منها توجد عمد من الرخام تبدو - لصفاء صقلها وحسن ألوانها - كالزمرد الأخضر ، أو الجزع الأصفر والأحمر .

وعندما تعرض ابن حوقل لوصف منارة الاسكندرية قال ان جميع العامة والخاصة من أهل الدراية مجمعون على أن مؤسسها اخترعها لرصد الفلك ، وأدرك ما أدرك من علم الهيئة بها .

ولكن الشيء الذى يستحق الإعجاب حقا فى رحلة ابن حوقل وصفه لجزيرة صقلية ، فان الجهد الذى قام به هذا الجغرافى

العربي في زيارة هذه الأماكن في القرن الرابع الهجري جهـد
لا يمكن اغفال فضله بحال من الأجوال .

وقد نقل ياقوت الحموي في « معجم البلدان » عن ابن حوقل
في رسم صقلية أنها جزيرة على شكل مثلث متساوي الساقين ،
زاويته الحادة من غربي الجزيرة ، وحددها ابن حوقل بأن طولها
مسيرة سبعة أيام في أربعة أيام والغالب عليها الجبال والقلع
والحصون ، وأكثر أرضها مسكونة مزروعة ، وليس بها مدينة
مشهورة معروفة غير المدينة المعروفة « ببلرم » عاصمة صقلية ، وهي
على نحر البحر ، وهي خمس حارات متجاورة غير متباينة ، وإن
كانت حدودها ظاهرة بيّنة .

وذكر ابن حوقل أن عليها سورا عظيما من حجارة شامخة
منيفة ، يسكنها التجار ، وفيها مسجد الجامع الأكبر ، وكان بيعة
للروم قبيل فتحها ، وفيه هيكل عظيم . ويقول بعض الرواة أن
حكيم اليونان أرسطوطاليس معلق في خشبة في هذا الهيكل الذي
اتخذهُ المسلمون مسجدا ، وأن النصاري كانت تعظم قبره
وتستشفى به لما شاهدت أكبار اليونان له واعظامهم لشأنه .
وقيل أن السبب في تعليقه بين السماء والأرض ما كان يلاقيه
الناس عند الاستسقاء والاستشفاء . مما يوجب الغزع الى الله
تعالى ، والتقرب اليه عند الشدة وخوف الهلكة .

كما تضم صقلية بعض المساجد الأخرى ، كمسجد ابن سقلاب
وبها كثير من الأسواق كسوق الزياقين بأجمعهم ، والدقاقين
والصيارفة ، والصيادين ، والحدادين ، والطرازين ، والبزازين ،
والصياقلة ، والسماكين ، والقصابين ، وباعة البقل ، وأصحاب
الفاكهة والرياحين ، والجزارين والخبازين ، وطائفة من العطارين
والاساكفة ، والدباغين ، والنجارين ، والخشابين .

وبمدينة بلرم وحدها ما يقرب من مائة حانوت للقصابين لبيع
اللحوم ، وهذا يشهد على وفرة الثروة الحيوانية فى البلاد ، وكثرة
الماشية والأغنام .

ويجاور القصابين القطانون والحلاجون ، بيد أن سوق القطن
لم يعجب ابن حوقل كما أعجبه غيره من الأسواق التى طاف بها ،

وقد تار ابن حوقل من بعض المناظر التى وقعت عليها عيناه فى
الجزيرة ولم يستطع أن يكتفم امتعاضه واستيائه ، اذ شاهد رباطات
 واجتماعات كثيرة على ساحل البحر مشحونة بالرياء والنفساق
والبطلالين والفساق ، والمتمردين من الشيوخ والأحداث .

كما تعرض ابن حوقل لوصف الحالة الاجتماعية لسكان
الجزيرة ، ونظام معيشتهم ، ووسائل طعامهم وشرابهم . وأشار الى
ظاهرة انتشار المعلمين والكتاتيب فى الجزيرة ، بيد أن بعض هؤلاء
المعلمين يعيد عن الصواب ، وينصرف عن الحق - وهذا أمر يستحق
الثناء . وفى هذا يقول ابن حوقل : « ومن أعظم الرزية ، وأشد
البلية ، وأفزع النازلة ، أن جميع أهل صقلية - لصغر أحلامهم ،
ونقص درايتهم وبعد أفهامهم - يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم
ولبابهم ، وفقاؤهم ومحصولهم ، وأرباب فتاويهم وعدولهم ، وبهم
عندهم يقوم الحلال والحرام ، وتعتد الأحكام ، وتنفذ الشهادات ،
وهم الأدباء والخطباء »

ويروى أنه رأى وندا كان لاسحاق بن الماجلى المعلم القاضى
يخطبهم نحو حولين : يجزم الأسماء مع الصلة ، ويجر الأفعال من
أول خطبته الى آخرها . وخاطب أديبا كان من أهلها يسعى ويدعى
الدراية بجميع الأحوال ، وقد نصب هذا الخطيب مالم يسم فاعله،
أو رفع منصوبا ويطنه مفعولا به . . فقال له : أما سمعت الخطيب،

وما كان منه ، وذكر له خطاه وقد ذهب عنه اللفظ فقال : « كانه والله ياسيدي كما تقول . غير انا نحن لانابه لمثل هذا »

وهذه القصة التي رواها ابن حوقل تدل على أن أهل هذه الجزيرة من الأدباء والخطباء والعلماء والمعلمين لم يكونوا يتمسكون بقواعد النحو والصرف ، بل كانوا يترخصون في أسلوبهم ... وهذه السمة لم تعجب ابن حوقل الجغرافي العربي .

ومن أرث مارآه بصقلية وأغثه - على حد تعبيره - خمسة معلمين في مكتب واحد يعلمون فيه الصبيان شركاء متشاكسون على باب عين شفاء ، يرأسهم شيخ يعرف بالملطاط وهو من أقدم الناس على شهادة الزور !

وهذا يدل دلالة قاطعة على أن أهل الجزيرة لم يكونوا يتوخون في المعلمين شروطا خاصة مما أفسسد النشء ، وأضر بسمعة الصبيان .

ووصف ابن حوقل بعد ذلك الشام والجزيرة والعراق ، وعرج على فلسطين والأردن ، ووصف بيت المقدس وصفا شائقا جميلا ، بيد أنه لا يختلف عن غيره من الرحالة . أما الأردن فقد استرعت مدينتها الكبرى « طبرية » وهي على بحيرة عذبة الماء طولها اثنا عشر فرسخا في عرض فرسخين أو ثلاثة ، وبها عيون جارية حارة . كما أعجبته فاكهة الأردن والأب والنخيل . وروى أن بالأردن كان مسكن يعقوب النبي - عليه السلام - ، وجب يوسف على بعد اثني عشر ميلا من طبرية .

وغير خاف أن الحدود التي رسمها ابن حوقل للأردن وفلسطين والشام تختلف كل الاختلاف عن الحدود الحالية ، بل الحدود التي فرضتها السياسة بعد الحرب العالمية الأولى . فهو يعتبر مثلاً مدينة صور من الأردن ، وهي الآن واقعة في منطقة لبنان .

وعندما وصف ابن حوقل الشام وقف وقفات طويلة عند مساجدها وآثارها . ومن الطريف أنه قال عن حمص : « ليس بها عقارب ولا حيات ، وإذا دخلت الحية والعقرب اليها ماتت » . ووصف سككها وأسواقها بأنها مفروشة بالحجارة مبلطة ، وقد زاد اختلالها بعد دخول الروم اليها وانصراف سلطاتها عنها .

كما وصف ابن حوقل دمشق وقنسرين وغيرها من مدن الشام ، حتى إذا وصل الساحل ثم عبر البحر وصف جزيرة مالطة وكريت وقبرص . ومن الأشياء التي ذكرها عن مالطة أن الحمير الوحشية تسرح فيها ، وبها غنم كثير ، وبها من العسل ما يجذب اليها كثيرا من الأقوام . أما قبرص فإن بها أنواعا مختلفة من الحرير والكتان ، وبها من القمح والشعير والحبوب والخشب مالا يوصف كثرة وروى ابن حوقل في كتابه طرفا من تاريخ هذه الجزر وموقف المسلمين منها ، مما يفيد دارس التاريخ الى جانب المعلومات الخاصة النافعة لدارس الجغرافيا .

وتناول ابن حوقل أيضا أرض الجزيرة التي بين دجلة والفرات - أو أرض بيعة ومضر - بالوصف والتعليق فقال : « الجزيرة اقليم جليل بنفسه ، شريف كان بسكانه وأهله ، رفه بخصبه كثير الجبايات لسلطانه » . وكان من أجل بقاع الجزيرة وأحسن مدنها وأكثرها فواكه ومياها ، ومتنزهات وخضرة ونضرة وأوفرها غلات من الحبوب والكروم والقمح والشعير، مدينة نصيبين . فوقف عندها ابن حوقل ووضح حدودها ، وجاس خلالها . إلا أنه أعلن امتعاضه ونفوره من عقاربها ، فقال : « وبنيصيبين عقارب قاتلة موصوفة مشهورة ، وبالغرب منها جبل ماردين ، ومن قرار الأرض الى ذروته نحو فرسخين ، وعليه قلعة لحمدان بن الحسن بن عبد الله بن حمدان ، تعرف بالباز الأشهب ، لا يستطيع فتحها عنوة ، وبناحيها حيات موصوفة تفوق الحيات في سرعة القتل ومضاء المنية » .

ولعل قدوم هذه الحيات الى نصيبين يرجع الى الجبال الواقعة بقربها ، وهذه الجبال لم تكن شرا كلها انما ضمت « جواهر الزجاج الجيد ، ويحمل منه الى سائر بلدان الجزيرة والعراق وبلد الروم ، فيفضل على ماسواه بجوهرية فيه . »

وكانت الموصل في الوقت الذي حل بها ابن حوقل مسكن سلطان الجزيرة ودواوينها ومجتبى أموالها : وللموصل أضعاف أعمال نصيبين ، في قسمة الأعمال ، وكثرة الضياع ، وعظم المحل وغزارة السكان ، وأهل الأسواق . . . اذ كانت أسواقها واسعة ، وكان الناس يؤمنونها من كل فج عميق . وهي مدينة أبنيتها بالجص والحجارة ، كبيرة غناء وأهلها عرب ، وأكثرهم يتنقلون بينها وبين البصرة والكوفة . وبها كثير من الحمامات والفنادق والساحات والعمارات . كما أن بها بعض الفواكه اليابسة والرطبة . وتنتشر في أنحائها الطواحين التي تعرف « بالعروب » - وهي من الخشب والحديد ، وربما دخل فيها شيء من الساج - وهي قائمة في وسط ماء شديد الجريان ، وموثقة بالسلاسل الحديدية وفي كل عربة منها أربعة أحجار ، ويطحن كل حجرين في اليوم واليلة خمسين حملا .

ووصف ابن حوقل أيضا ما في الجزيرة من برار ومفاوز فسيحة .

ثم انقل الى العراق . وهو على حـد تعبيره « أعظم أقاليم الأرض منزلة ، وأجلها صفة ، وأغزرها جباية ، وأكثرها دخلا وأجملها أملا ، وأكثرها أموالا ، وأحسنها محاسن ، وأفخرها صنائع ، وأهله أوفرهم عقولا وأوسعهم علوما ، وأفسحهم فطنه في سالف الزمان والأمم الخالية » .

وتعرض ابن حوقل بعد ذلك إلى وصف مدن العراق ، فوقف عند البصرة والكوفة ، ثم بلغ مدينة السلام أو بغداد ، وروى لنا طرفا من تاريخ هذه المدن :

فالبصرة لم تكن في أيام العجم ولما اختطها المسلمون أيام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ومصرها عتبة بن غزوان ، ويحيط بغربها البادية مقوسة ، وبشرقيها ميناء الأنهار مفترشة .

والكوفة من خطط قبائل العرب ، وبنائها كبناء البصرة ، ومصرها سعد بن أبي وقاص .

وبغداد أبتناها أبو جعفر المنصور في الجانب الغربي من دجلة وجعل حولها قطائع لحاشيته ، ومواليه وأتباعه . ثم عمسرت وتزايدت ، فلما ملكها المهدي جعل معسكره من الجانب الشرقي فسمى معسكر المهدي ، وتزايد الناس والبنیان ، وكثرت عمارتهم ، وانتقل اسم الخلافة إلى الجانب الشرقي .

أما مدينة « سر من رأى » فقد استحدثتها أبو اسحق المعتصم ابن الرشيد ، وطولها ستبعة فراسخ على شرق دجلة .

وهكذا كان ابن حوقل يلجأ بين الحين والحين إلى استخدام ثقافته التاريخية في وصف هذه البلدان . والملاحظ أنه كان غزير المادة بالنسبة إلى وصف أرض العراق والجزيرة ، ولعل ذلك يرجع إلى أنه من الموصل ثم رحل إلى بغداد . والملاحظ كذلك أنه يتحيز بعض الشيء إلى قومه كما يتحيز لخيرات بلاده كما أنه كان يكثر من استخدام « أفعلو التفضيل » في وصفه واستخدام « أفعل المفضل » على هذه الصورة لا يجوز لمن ابن حوقل الذي لم تمكنه الظروف من ارتياد جميع مناطق العالم . فإقليم العراق أعظم أقاليم الأرض منزلة وحلوان مدينة ليس بالعراق - بعد البصرة والكوفة وواسط - أعمر منها ولا أكثر خصبا ، وجل نمارها الثين .

والملاحظ - كذلك أن ابن حوقل لم يهتم في كتابه الجغرافى
بالمناخ ، اللهم الا اشارات خفيفة تظهر بين ثنايا الكتاب ، ومن ذلك
قوله ان الثلج ربما يسقط على بعض الجبال فى العراق . أما أعلى
الجبل فالثلج يسقط به دائما . والموصل صحيحة التربة والهواء ،
ومدينة الكوفة قريبة الأوصاف من البصرة ، بيد أن هواءها أصح
وماءها أعذب . . وما الى ذلك من خطرات تتراعى فى تضاعف
الكلام .

ولكننا اذا قدرنا أن ابن حوقل يكتب مؤلفاته فى القسرن
الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) قبل أن تتقدم الجغرافيا فى العصر
الحديث على يد « اسكندر همبولت » (١٧٦٩-١٨٥٩) و « كارل
رتز » (١٧٧٩-١٨٥٩) ، ويظهر كثير من الاكتشافات الجديدة ،
ويبدأ الجغرافيون فى التحليل والتعليل والبحث عن الأسباب بدلا
من الاكتفاء بقبول الحقائق وسردها على عواهنها دون تعمق . . .
أدركنا مدى جهد ابن حوقل فى هذا الميدان .

هذا وقد ظهرت عدة طبعات من كتاب « المسالك والممالك ،
والمفاوز والممالك » لابن حوقل فى أوروبا ، كما طبع فى مطبعة بريل
بمدينة ليدن عام ١٩٣٨ كتاب صورة الأرض طبعة ثانية وهوىحتوى
على نص النسخة المرقومة ٣٣٤٦ المحفوظة فى خزانة السراى العتيق
فى استنبول ، وكذلك على صور هذه النسخة . وقد استنتج بمقابلة
نص الطبعة الأولى وبعض المصادر الأخرى ، وظهرت طبعة أخرى
من كتاب المسالك والممالك فى بون ، وترجمه أوزبلى الى الانجليزية
ونشره فى لندن ، وسماه « الجغرافية الشرقية لابن حوقل » وطبع
هذه الترجمة فى لندن عام ١٨٠٠ ، وتوجد فى مكتبة البودليان
باكسفورد نسخة خطية من هذا الكتاب ، كما توجد نسخة أخرى
فى مكتبة باريس .

وقد استشهد ياقوت الحموى - فى كتابه « معجم البلدان »
بأقوال كثيرة لابن حوقل .

مطابع شركة الاعلانات الشرفية

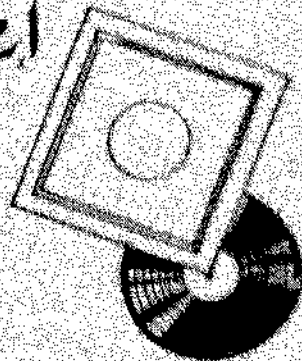
الصحف المرقت

تقدم المكتبة الطليعات ونزول على رفقة السادة الموالين
بمجاناً من يدانت عن بيع ..

اطوانات الصحف المرقت

عددها ٤٤ اطوانة بالانعام الرتبة

الرقم	الاسم	الاسم
٢٣	٧٩٦	النسخة المتأخرة
١٩	٣٢٢	النسخة المتأخرة
١٧	٨٥٠	النسخة المتأخرة
١٤	٤٩٥	النسخة المتأخرة



مجموعة اطوانات الصلاة



شكراً
٥١ قرشاً

وتمنّى على
تأليفه المراتب والوضوء
والصلوات الخمس

عدد ٧٩٦ تأليف الموهبة ٧٢٧-٨

بمجاناً
المجان من يدانت عن بيع ..